إبراهيم النعمة

العقيدة الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم


العقيدة الإسلامية

الطبعة السادسة

١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م

مقـــدمة

الحمد لله حمداً يبلِّغني رضاه، والصلاة والسلام علـــى عبـــده ورسوله محمد، وعلى سائر أنبيائه ورسله، وآله الطيبـــين، وصـــحبه المخلصين الصادقين، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين!

أما بعد:

فهذه كلمات قليلات، يتعرف القارئ الكريم من خلالهـــا علـــى العقيدة الإسلامية الصحيحة، النابعة من كتاب الله، وسنة رســـوله ﷺ، وما كان عليه الصحابة الكرام من عقيدة أثمرت ثمرات طيبةً بـــإذن الله. ذلك أن الدعوة إلى ترسيخ العقيدة الصحيحة، هو أهـــم الأمـــور وأكد الواجبات؛ إذ العقيدة هي الأساس الذي تُبنى عليه صحةُ الأعمال وقبولها، وإن صلاح كل أمة ورقيها يتوقف على سلامة عقيدتها؛ لذلك نرى رسالات الأنبياء –عليهم السلام– أوّل ما نادت به: هو إصـــلاح العقيدة، فكان كل رسول يقول لقومه أول ما يـــدعوهم –كمـــا حكـــى القرآن الكريم–:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(١)

فلا نعجب إذا علمنا أن الآيات ظلت تنزل على رسول الله ﷺ في العهد المكي ما يقرب من ثلاثَ عشرةَ سنة، تـــعرِّف الناس بالله، وبصفاته، وبالدار الآخرة، وتدعوهم إلى تنزيه الله عن أيِّ لونٍ كـــان من ألوان الشرك.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

وهذا العلم الذي يسمى بـ(علم العقائد): هو أصل الإسلام كله، ومنزلته كمنزلة الروح من الجسد، وهو أفضل العلوم وأشرفها، بل هو روح الإسلام وجوهره، وموضوعاته تدور حول أهم ما يتعلق بالإنسان. والجهل بهذا العلم يؤدي إلى العمى. قال الله تعالى:

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١).

فإذا تعلمتَ -أخي المسلم- هذا العلمَ وغيره من العلوم وانتفعت بها، فإن عليك أن تُعلِّمَ غيرك. وبهذا تنضوي تحت لواء الدعاة إلى الله، الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾(٢).

وهذه الشذرات التي بين يديك -عزيزي القارئ- حاولتُ كتابتها بأسلوب واضح لا تعقيد فيه ولا غموض؛ ليسهل على الناس فهمها، مبتعداً عن الفلسفات التي أُقْحِمتْ في كتب العقيدة، حتى ظنها الناس منها وما هي من العقيدة في شيء.

وقد اقتبست من كتابي (إيماننا الحق بين النظر والدليل) ما تمس الحاجة إليه، ووضعته هنا ليكونَ الناس على بينة من أمر ضروريات عقيدتهم ... سائلاً المولى الكريم أن يتقبله مني القبول الحسن، وينفعَ بهذه الكلمات كل من يقرأها، مؤمِّلاً أنْ لا ينساني القارئ من الدعاء لي ولوالديَّ وللمسلمين.

---

(١) سورة الرعد، الآية ١٩.
(٢) سورة فصلت، الآية ٣٣.

علم التوحيد
أو العقيدة الإسلامية

يبحث علم التوحيد في إثبات العقيدة الإسلامية بالأدلة اليقينية: النقلية والعقلية. فهو يبحث في الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وسمي علم العقائد بعلم التوحيد؛ لأن أهم بحوثه: هو إثبات توحيد الله. والتوحيد عقيدة فطرية، أما الوثنيات، فهي أمراض طارئة. قال الله تعالى في الحديث القدسي:

(... وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشركوا بي ما لم أُنزِّلْ به سلطانا)[1].

ولقد كان سلفنا الصالح يطلق مصطلح (الإيمان) على ما يتعلق بعلم التوحيد؛ آخذاً من حديث جبريل للنبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ...

أما مصطلح (العقيدة) فلم يُعرف في القرون الأولى، بل عُرف بعد ذلك بكثير. وأول من استعمل هذا المصطلح الإمام أبو عثمان إسماعيل الصابوني المتوفى سنة ٤٤٩هـ في كتابه (عقيدة السلف وأصحاب الحديث).

---

(١) رواه مسلم، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب: الصفات التي يُعَرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار).

وتَعلُّمُ القدْر الضروري من علم التوحيد فرض عين على كل مسلم ومسلمة؛ ليكون مقتنعاً -كل الاقتناع- أن الإسلام هو الحق. ولا يؤخذ هذا العلم إلاَّ من كتاب الله، ومن الأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول. وقد عزَّ المسلمون وانتصروا وسادوا يوم كانت عقيدتهم بالله صحيحة، وأصابهم ما أصابهم من الضعف والذلة والهوان واستيلاء المستعمرين على بلادهم، يوم ضعفت عقيدة التوحيد فيهم!

وإذا كان كثيرٌ من الكتب التي ألفت في العقيدة الإسلامية لا تخلو من أخطاء؛ فلأن قسماً من مؤلفيها تأثروا بالفلسفات الأجنبية التي ترجمت إلى العربية أولاً، ولاجتهاد قسم من المؤلفين في فهم النصوص ثانياً، ولأن أكثر تلك الكتب ألفت في الرد على المخالفين بعد ذلك.

الإســـلام

في العالم اليوم ديانات كثيرة. وقد نُسِبَتْ كل واحدة منها: إمـــا إلى رجل معيَّن، أو إلى أُمة، فالمسيحية أَخَذَت أســـمها مـــن الـــسيد المسيح ، والبوذية سميت باسم بانيها (بوذا)، واليهودية باسم قبيلة تُعرَف بـــ(يهوذا) ...

أما الإسلام، فإنه لا يُنسب إلى رجل معين، ولا إلى أُمة، ولكن يدل على صفة يتضمنها هذا الدين، وهو: الإسلام لله في كـــل أمـــر ونهي. وهذا يعني أن الإسلام ما أوجده أحد من البشر، ولا من غيره من المخلوقات، وليس هو خاصاً بأُمة دون سائر الأُمم، بل هو للناس جميعاً إلى أن تقوم الساعة. ومعناه: الانقياد والامتثال لأمـــر الآمـــر ونهيه بلا اعتراض. ولم تكن تســـمية (الإســـلام) قد جاءت اجتهـــاداً من الرســـول ﷺ، وإنما جاءت من الله –تبارك وتعـــالى– قـــال الله ﷻ:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُـــمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[١].

وإذا كانت الأمة المحمدية قد أُخْتُصَّت بهـــذا الاســـم، فـــلأنَّ الإسلام اسم للشريعة التي اشتملت على العبادات المختصة بهذه الأمة: من الغسل من الجنابة، وغير ذلك مما اخْتُصَّتْ به هذه الأمـــة، ولـــم يُكتبْ على غيرها من الأُمم. ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى:

---

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

﴿... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ... ﴾[1].

ويدخل الإنسان في الإسلام حين يعتقد بقلبه اعتقاداً جازماً لا شكَّ فيه ولا ريب: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويُقرُّ ذلك بلسانه. ولا يكون إسلامه كاملاً، حتى يقومَ بأركان الإسلام كلِّها. فإنْ أضاعها أو أضاع بعضَها صار فاسقاً عاصياً.

الإسلام خاتمة الشرائع:

الإسلام هو التوجه الكامل إلى الله -سبحانه- والاستجابة لأوامره ونواهيه. وهذا من حق الله على عباده؛ لأنه خالقهم، ورازقهم، ومدبر شؤونهم. ونحن حين ننظر في عقيدة كل نبي من الأنبياء، نراها واحدة لم تتغير ولم تتبدل منذ زمن سيدنا (نوح) والنبيين من بعده، إلى زمن سيدنا محمد ﷺ، وقد نصّ الله في قرآنه على ذلك، قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[2].

وهذه الآية صريحة في أن العقيدة الإسلامية التي جاء بها نبينا محمد ﷺ: هي العقيدة نفسها التي جاء بها الأنبياء كلهم، وشرعها الله للأمم السابقة كلها، وقد خصّ الله في هذه الآية بالذكر الرسل أولي

---

(١) سورة الحج، الآية ٧٨.
(٢) سورة الشورى، الآية ١٣.

العزم، ابتداءاً من نوح عليه السلام، وانتهاءاً بسيدنا محمد ﷺ لمكانتهم الكبرى، وفضلهم، وإمامتهم، وقد قال رسول الله ﷺ:

((الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ: وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ...))[1].

أما شرائع الرسل، فإنها متعددة ومتنوعة حسب ما تحتاجه كل أمة من الأمم، قال تعالى:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

فالشريعة التي تصلح لقوم قد لا يصلح بعضها لقوم آخرين. وما مَثَلُ الشرائع –ولله المثل الأعلى– إلاّ كمثل المنهاج الدراسي في المدارس: فإن لكل مرحلة من مراحل الدراسة منهاجها الخاص بها. فالذي يصل في دراسته إلى آخر مرحلة من مراحل الدراسات العليا –مثلاً– تكون له القابلية على استيعاب ما يُلقى إليه من أمور أكثر من استيعاب غيره من المراحل ... وهكذا الأمر في إرسال الرسل والأنبياء. فلم يجعل الله شريعة نبيٍّ من الأنبياء –قبل شريعة محمد ﷺ– خالدة باقية إلى قيام الساعة؛ لأن تلك الأمم لا تستطيع أن تحمل الرسالة الخالدة الأبدية. ولكن حينما وصلت البشرية إلى أول النضوج العقلي، أرسل الله خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ بهذه الشريعة الخاتمة، الصالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: فضائل عيسى عليه السلام) ٤/١٨٣٧.
(٢) سورة المائدة، الآية ٤٨.

الإيمـــان بالله

أول واجب على الإنسان أن يعرف خالقه؛ لأنه إن لم يعــرف ذلك لا يستطيع أن يتبع هدى الله الذي يسعده في الدنيا والآخرة. فمـــا المراد بالإيمان بالله؟

الإيمان بالله: هو التـــصديق القـــاطع الجـــازم بوجـــود الله، واطمئنان القلب إلى ذلك اطمئناناً يترك آثاره في ســـلوك الإنـــسان، والتزامه بأوامر الله واجتناب نواهيه. وهو أهم ركـــن مـــن أركـــان الإيمان، والأركان الأخرى تابعة له ومضافة إليه. فالمسلم يؤمن بالله أوّلاً، ثم يؤمن بملائكته وكتبه ورســـله واليوم الآخر والقـــدر خيـــره وشره. ويتضمن الإيمان بالله: الإيمان بوجوده ووحدانيته.

وجود الله قضية فطرية:

يشعر الإنسان في قرارة نفسه شعوراً لا يخالطه أي شك كان: أنَّ هذا العالم -كله- بما يحويه من كائنات عاقلة وغير عاقلة، تسيِّره قوة عظيمة خفية وفق علم وحكمة. وهذا الشعور عام شامل، لا يتقيد بزمان ولا يحده مكان. ولا يهمنا -بعد ذلك- إنْ تمكَّنَ من إقامة الأدلة والبراهين على شعوره هذا أم لم يستطع. فكم من قضايا يحـــس بهـــا الإنسان ولا يستطيع أن يقيم الأدلة على وجودها بحواسه المادية! فهو يحسُّ بوجود (الروح) فيه، لكنه لا يستطيع أن يقيم الأدلة المادية على وجودها. ويحس بالحب والبغض، والفرح والألم، ولا يستطيع بحواسه المادية أن يقيم الأدلة على وجودها كذلك.

حدوث الكون ووجود الله:

هناك قاعدة تقول: (لكل حادث محدث)، وهي قضية يقينية لا يجادل فيها إنسان عاقل؛ إذ إنَّ أي حادث كان لا يستطيع أن يوجد نفسه. ويذكرني هذا بذلك الأعرابي الذي ظل محافظاً على فطرته السليمة من الفساد وقد سئل: كيف عرفت ربك؟ فأجاب: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير: فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!!

إننا ننظر في هذا الكون الواسع الرحيب، فنرى فيه نجوماً وأنهاراً وشمساً وقمراً وأشجاراً ... وهذه -كلها- قد أتت من أسباب، والأسباب قد أتت من أسباب، إلى أن نصل إلى السبب الأول الذي أوجَدَ هذه الكائنات كلها.

ونحب هنا أن نذكر: أن من القواعد الثابتة التي لا يجادل فيها إنسان عاقل (أنَّ فاقد الشيء لا يعطيه) فمن لا يملك ديناراً من الذهب لا يستطيع أن يعطي غيره دينار الذهب. وهذه الطبيعة الجامدة الصماء لا تملك شيئاً من علم، وليس لديها حكمة ولا إرادة، فكيف تستطيع أن توجد هذا الكون الواسع الذي يتسم بكل معاني الدقة والإتقان؟!

((الكائن المتعدد الخلايا -وفي قمته الإنسان- يكون في منشئه خلية واحدة ملقحة، ثم تظل تنقسم وتنمو حتى تصبح كائناً متكاملاً. فأي قدرة تمنحه الحياة والحركة والنشاط غير قدرة الله؟)).

((وإن أعجب ما في عملية الانقسام هذه: أن الخلايا تكون كلها متماثلة –لظاهر العين– في نشأتها الأولى، ثم يصدر إليها الأمر فتتخصص وتتشكل بشكل معين! فخلية تتجه إلى مكان معين وتصبح أذناً أو جزءاً من أذن، وخلية تتجه إلى مكان آخر فتصبح عيناً أو جزءاً من عين، وثالثة تصبح خلية من خلايا المخ، ورابعة تتحول إلى عظام، وهكذا. فأي أمر هذا الذي صدر إليها فأطاعته ونفذته بهذه الدقة العجيبة، وهي شيء لا يكاد يُرى بالعين؟ إنه أمر الله الخالق المبدع، يأمرها فتطيع، وتتحرك بمقتضى مشيئته –سبحانه– فتتكوّن كما أرادها الله، وتقوم بالدور الذي أراده لها الله))[1].

وعاد الملاحدة المكابرون ليقولوا: (إذا كان الدود قد جاء من دود سابق عن طريق البيض الصغير الذي لم نره، فإن الجراثيم التي تعفِّن الأطعمة وتفسدها قد جاءت من الطبيعة، ولم تولد من جراثيم سابقة. ولكن هذه الشبهة –أيضاً– دُحضت قبل أكثر من ثمانين عاماً، عندما أكتشف الباحثون طريقة يحفظون بها الطعام دون أن يتعفن: وذلك بعزل الطعام في علب محكمة، تُقتَلُ فيها الجراثيم بالحرارة، أو الأشعة، وتُعزَلُ عن الهواء، حتى لا تأتيَ من مخلوقات سابقة، ولا تتولد من الطبيعة كما يزعم الجهلة من الملحدين)[2].

ومن مزاعم الملاحدة التي استدلوا بها على أنَّ الطبيعة هي التي تخلق المخلوقات قولهم: إن الدود يتكون من بقايا فضلات

---

(١) ركائز الإيمان، تأليف محمد قطب، ص ١٢، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ–١٩٩٧م، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا، الرياض.
(٢) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص٥٧–٥٨، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧–١٩٨٧، دار القلم/دمشق.

الإنسان والحيوان!! وقد ردَّ العلم الحديث زعمهم هذا، فكشف للناس أن هذا الدود قد جاء من بيض صغير جداً لا تراه العيون المجردة، لكن الإنسان استطاع أن يراها بالمجاهر؛ فعاد الملاحدة يجرُّون أذيال الخيبة والجهل!!

يزعم الملاحدة أن الطبيعة هي التي خلقت هذا الكون المتناسق البديع! ولو رأى هؤلاء قصراً مشيداً، قد حفَّتْ به البساتين من كل جانب، وانتشرت حوله من الأزهار والرياحين أزكاها وأعطرها ... ودخل هؤلاء القصر فبهرتهم روعتُه، وأخذ بألبابهم جمالُه: وجدوا غرفاته مهيأة منظمة: بعضها للطعام، وثانية للمنام، وأُخرى للضيافة ... ووجدوا فيه أثاثاً رائعة الجمال، قد وُضِعَ كل شيء في موضعه المناسب. فلو قيل لهؤلاء الملاحدة: إن أصواف الأغنام قد تطايرت بذاتها، والتحمت فيما بينها من غير أن يتدخل أحد في صنعها، فكوَّنت هذه الأنسجة الجميلة المطرزة، ثم انتقلت هذه الأنسجة بذاتها فمكثت في مكانها المناسب في هذا القصر، وتشققت أشجار الغابة بذاتها ألواحاً، وتركبت بذاتها –أيضاً– فكوَّنت لنا هذه الأبواب والمناضد والمقاعد، وقد أخذ هذا الأثاث موضعه المناسب بذاته أيضاً ...!! أيصدِّق هؤلاء الملاحدة هذا القول، أم يعتبرونه (أضغاث أحلام) و (حديث خرافة)، ويعتبرون قائلة قد أصابه مسٌّ من الجنون؟!!

فإذا كان الأمر هكذا بالنسبة إلى هذا القصر المشيد، فما ظنك بهذا الكون الواسع العظيم الذي لا تحده حدود؟! وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ۝وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ۝وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ۝تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

وقال تعالى:

﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢].

وهكذا تكثر الأدلة على وجود الله كثرة هائلة لا تحصى، ويكون عددها كعدد مخلوقات الله التي تحمل الأدلة بعد الأدلة على خالقها.

وإذا كان الملاحدة يروق لهم أن يتحدثوا باسم العلم، فلننظر ماذا يقول العلماء في قضية الخلق؟

قال عالم الأحياء والنبات (رسل تشارلز أرنست):

((إنني اعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها. وإن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض، تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً))[٣].

وقال الدكتور (وتز) الكيماوي الفرنسي عميد كلية الطب بباريس، وعضو أكاديمية العلوم:

---

(١) سورة الجاثية، الآيات ٣-٦.
(٢) سورة يونس، الآية ١٠١.
(٣) الله يتجلى في عصر العلم، مقال (الخلايا الحية تؤدي رسالتها).

((إذا أحسست في حينٍ من الأحيان أن عقيدتي بالله قد تزعزعت وجهت وجهي إلى أكاديمية العلوم لتثبيتها))[1].

وقال العالم الطبيعي (أوليفر وندل):

((كلما تقدمت العلوم، ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله))[2].

وقال العلامة الإنكليزي (هرشل) -وهو من أكابر علماء الفلك في العالم-:

((كلما اتسع نطاق العلم، ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حدّ لقدرته ولا نهاية. فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم: وهو صرح عظمة الله وحده))[3].

وأقوال العلماء في هذه القضية كثيرة كثيرة. ونحن إذ ننقل قسماً منها لا نريد أن نقوّي إيماننا بالله بها؛ لأن كتاب الله يكفينا في ذلك، لكننا نستشهد بهذه الشهادات لنقول للذين فتنهم التقدم العلمي في هذا العصر: إنْ كنتم تريدون رأي العلم في وجود الله، فهؤلاء هم جهابذة العلم، وهذه شهاداتهم.

---

(١) العقائد الإسلامية، تأليف السيد سابق، ص ٥٠، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ، دار الكتاب العربي، القاهرة.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ١١٧، الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق، بيروت.

(٣) دائرة معارف القرن العشرين، تأليف محمد فريد وجدي، ١/٥٠٣.

العليم الحكيم:

كل من يتأمل في هذه المخلوقات التي نراها أو نحسها في الأرض وفي السماء، نجد أن خَلْقَها كان بعلم وحكمة، قد أُعِدَّ بما يناسب أحوال الحياة التي سيعيش فيها الإنسان، والحيوان، والنبات، وسائر المخلوقات ...

فهذا الهواء الذي نتنفسه نأخذ منه (الأكسجين): وهو الهواء الصالح للاستنشاق، ونحوّله إلى (ثاني أكسيد الكاربون): وهو الهواء الفاسد. ومع ذلك فإن نسبة الهواء الصالح يظل محافظاً على نسبته: فلا ينقص بكثرة الاستهلاك؛ لأن العليم الحكيم جعل استهلاك الهواء للنبات على عكس ما يستهلكه الإنسان، فالنبات يأخذ (ثاني أكسيد الكاربون) ويحوله إلى (الأوكسجين). وهكذا تبقى نسبة الهواء كما هي لا ينقص منها شيء. ألا يدل ذلك على أن الذي خلق هذا الخلق عليم حكيم؟! وصدق الله العظيم القائل:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

وننظر إلى السمك في الماء، فنراه يحتاج إلى الهواء ليتنفس؛ فأذاب العليم الحكيم الهواء مع قطرات المطر، وجعل للسمك جهازاً خاصاً يسمى (الخياشيم)، يستخلص به السمك الهواء المذاب بالماء. ألا يدل ذلك على أن الذي خلق هذا الخلق عليم حكيم؟!

وننظر إلى ما خلقه الله في الإنسان: ننظر إلى (المخ)، فنراه مادة ضعيفة! فمن الذي حفظه بذلك القفص القوي من عظام الجمجمة؟!

---

(١) سورة القمر، الآية ٤٩.

ومن الذي حمى (العين) بعظام الحاجب والأنف والوجنة؟

ومن الذي حمى (القلب) و (الرئتين) بالقفص الصدري؟

إنه الله الذي أحسن كل شيء خلقه؟ وقدَّر كل شيء تقديراً.

إنك -أيها الإنسان- تستنشق الهواء في نومك ويقظتك من غير أن تعمل ذهنك في الاستنشاق. إنه لم يكلفك بهذه العملية. ولو كلَّفك بها لشق عليك ذلك. فإذا غلبك النوم انقطع عنك الهواء وفقدت الحياة. وصدق الله العظيم القائل:

﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(١).

﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

الإيمان بالغيب:

الإنسان إذا لم يعرف شيئاً يحاول أن يعرفه عمن يعرفه، ثم يأخذ بقوله: فإذا مرض بحث عن طبيب ماهر حاذق مشهود له بالعلم الغزير، وذلك لثقته العالية بما يملكه الطبيب من براعة وخبره ... وهكذا كل أمر من أمور الدنيا. فإذا كان الحال هكذا بالنسبة إلى العلوم الدنيوية، فإن علوم الآخرة تؤخذ -أيضاً- ممن أحاطوا بها علماً، وعرفوا من أحوالها ما لم يعرفه الناس الآخرون. فنحن لا نعرف عن ذات الله وصفاته، ولا عن الحياة الآخرة، لكننا نستطيع أن نعرفها عن طريق نبي أو رسول نعرف صدقه وأمانته في أقواله

---

(١) سورة الملك، الآية ١٤.
(٢) سورة الزخرف، الآية ٨٤.

وأفعاله كلها، وتقوم الأدلة على ذلك، فتطمئن قلوبنا إلى أنه لا يقول إلا الحق. هذا الإنسان الذي خَبَرْنا صدقَه وأمانته: هو نبيٌّ من أنبياء الله، أو رسولٌ من رسله، يقوم بتبليغ شرع الله إلى الناس، ودعوتهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم وأخرتهم. هذا هو المراد بالغيب: أن يرجع الإنسان في معرفة ما لا يعرف إلى مَنْ يعرفُه، ثم يُصدِّقُه بما يقول. فنحن لا نستطيع أن نتلقى العلمَ الصحيح عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره إلا عن طريق الأنبياء؛ إذ هؤلاء قد اجتباهم الله، وأطلعهم على شيء من الغيب جهلناه نحن وعرفوه هم، قال تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا۝إِلاّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ...﴾(1).

هكذا صار الإيمان بالغيب قاعدة مهمة من قواعد الإيمان؛ إذ الحواس لا تستطيع إدراك كل موجود. فالروح موجودة فينا ولا ندرك حقيقتها: فلا نستطيع أن نلمسها ولا نراها ولا نسمعها ولا نذوقها ولا نشمها، ولا تستطيع عقولنا أن تعرف صورتها ... لذلك صار من أول صفات المؤمنين المتقين إيمانُهم بالغيب، قال تعالى:

﴿الم۝ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ۝الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ... ﴾(2).

وهذا العام المغيب عن حواسنا يسمى عالم الغيب Metaphysique وهو ينقسم إلى قسمين:

---

(1) سورة الجن، الآيات ٢٦-٢٧.
(2) سورة البقرة، الآيات ١-٣.

١- قسم قابل لأن يكونَ من عالم الشهادة، وذلك حين تتهيأ للإنسان شروطُ مشاهدته. فلو استطاع الإنسان بالبحث العلميّ أن يصل إلى كوكب سماويّ بعيدٍ عنا، لأصبح أمر هذا الكوكب من عالم الشهادة لا الغيب.

٢- قسم غير قابل لأن يكون من عالم الشهادة، فلا يستطيعُ البشرُ إدراكه؛ لأن الله قد تفرَّد بعلمه واستأثَرَ به، فلم يُطلعْ عليه أحدا في الأرض ولا في السماء، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله:

﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[١].

وما وَرَدَ من الغيب في القرآن الكريم يجب الإيمانُ به ويُكفَّرُ جاحدُه، بل إنَّ أركان الإيمان كلها قائمةٌ على الإيمان بالغيب.

الملاحدة ورؤية الله في الدنيا:

سلك الملاحدة سلوك بني إسرائيل الذين قالوا لسيدنا موسى عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...﴾[٢].

يطلب الملاحدة في قرننا العشرين أن يروا الله بأم أعينهم، وهم يؤمنون بوجود أشياء كثيرة من غير أن يروها. إنهم يؤمنون بوجود الجاذبية الأرضية، وبأمواج الإذاعة التي تأتي من أماكن بعيدة،

---

(١) سورة النمل، الآية ٦٥.
(٢) سورة البقرة، الآية ٥٥.

ويؤمنون بوجود الهواء وإن لم يروا شيئاً من ذلك بأبصارهم، لكنهم رأوا آثارها فقالوا بوجودها. رأوا آثار الجاذبية وهي تجذب الأشياء إلى الأرض فقالوا بوجودها، وعلموا بآثار الأمواج التي ظهرت أصواتاً في المذياع فقالوا بوجودها، ورأوا آثار الهواء قد ظهرت بتحريك أغصان الأشجار وغيرها فقالوا بوجوده. وهذه الأشياء -وغيرها كثير- عجزت الأبصار عن رؤيتها، لكن العقل قال بوجودها. ولو تخلى الملاحدة عن استكبارهم لقالوا: إن هذا الكون بأرضه وسمائه، وشموسه ونجومه وأقماره، وهي تسير بطريقة هي قمة في الدقة والنظام، لتدل دلالة واضحة على وجود خالق لهذا الكون، لكنهم لا يستطيعون رؤيته؛ لأن نظر الإنسان ضعيف كليل.

التفكير في ذات الله:

دعا الرسول الكريم ﷺ المسلم إلى التفكير في مخلوقات الله وعدم التفكير في ذات الله -سبحانه- فقال:

(تفكروا في خلق الله، ولا تَفَكَّروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره)[1].

ودعوة الرسول الكريم ﷺ هذه عصمة للإنسان من الانحراف والتردي في مهاوي التيه والضلال؛ إذ إن عقل الإنسان مخلوق، وهو قاصر قاصر، فكيف يستطيع أن يحيط علماً بحقيقة الخالق جلَّ جلاله؟!

---

(١) رواه أبو نعيم.

وما مَثلُ تفكُّرِ الإنسان في ذاتِ الله إلاَّ كمثل قوةِ الإبصار لدى الإنسان؛ فإنها محدودة بحدود. فهو يستطيع النظرَ بعينه المجردة إلى عدد من الكيلو مترات. أما المسافات البعيدة فلا يستطيع أن يبصرها بعينه المجردة مهما أُوتيَ من قوة الإبصار، وكذلك أمر الشم وغيره.

فكما أن نظر الإنسان محدودٌ فكذلك عقله؛ فإن له حدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها. والعقل قيد مشتق من (العقال): وهو الحبل الذي يقيَّدُ به الجمل.

ونحن حين نتأمل في هذا الحديث الشريف، نرى أن الرسول ﷺ أراد أن يُبْعدَ المسلمَ عن معالجة قضايا لم تتوافر له وسائلُ بحثها، ولا يستطيع عقلُه المقيَّدُ مهما كان راجحاً أن يعالجها. ويحق لنا أن نسأل:

ماذا عرفَ الإنسانُ من أسرار نفسه حتى يفكِّرَ في ذات الله؟!

وماذا عرف عن روحه التي تسري في جسده؟

وماذا عرف عن عقله الذي يفكِّرُ به؟

وماذا عرف من أسرار الكون حتى يفكرَ في ذات الله؟!

لقد بحث الإنسانُ طويلاً، وأضنى نفسَه جهداً ومشقة، ثم لم يتوصلْ إلى حقيقةٍ جوهريةٍ واحدة من حقائق الكون! إنه لا يعرف ذاتها، ولا يعرف جوهرها، ولا يعرفُ إلاَّ شيئاً من صفاتها ومظاهرها!

إن من أوضح قواعد المنطق أن الإنسان إذا عجز عن الصغير، فهو عن الكبير أكثر عجزاً. فكيف يتسنى لهذا المخلوق

الضعيف المحدود الطاقة، أن يحيط علماً بحقيقة الخالق صـــانع هــذا الكون ومدبر شؤونه؟!!

أيستطيع ذلك بعقله؟

أولَيسَ العقل قد قرر أن المحدود لا يستطيع أن يحــيط بغيــر المحدود؟

على أن الرسول ﷺ حين نهى المسلم عن التفكير في ذات الله، فإنه لم يُرِدْ أن يحجر على تفكيره، أو يضع عليه القيود، لكنه أراد أن يوفر للمسلم جهده لما ينفع من الأعمال؛ كيلا يتبدد سدىً ويؤدي إلــى الضلال.

معنى الشهادتين

أشهد أنْ لا إله إلاَّ الله،

وأشهد أنَّ محمداً رسول الله

كلمتان حبيبتان إلى قلب كل مسلم، ويقوم عليهما الإسلام، وتميِّزان المسلم من الكافر. وهما أول ما يَدْخُل بهما المرء في الإسلام، وأول واجب على المكلف يتحتم عليه أداؤه لهما؛ تصديقاً واعتقاداً ونطقاً، ويرددهما المسلم كلَّ يوم مرات ومرات. وهذه الكلمة العظيمة -كما يقول ابن قيم الجوزية-: (لأجلها نُصِبَتْ الموازين، ووُضِعَت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وأسست الملة، ولأجلها جردت السيوف للجهاد، وهي حق الله على جميع العباد)[1].

ومن نطق بهاتين الشهادتين نحكم بإسلامه، من غير أن نبحث في مدى صدق تلك الشهادة؛ إذ إن ذلك من شأن علاَّم الغيوب الذي يعلم السر وأخفى ...

ولكن ما معنى هاتين الشهادتين؟

معناهما: أقرُّ وأُصدق وأعترفُ أنه لا معبودَ بحق في هذا الوجود إلا الله. والمسلم حين يقول: (لا إله) ينفي الآلهة المزعومة كلها، ويثبت الألوهيةَ الحقَّةَ لله وحده حين يستثني قائلاً: (إلا الله). وهكذا يعلن المسلم البراءة من عبادة ما سوى الله، والتزامه بعبادة الله

---

(١) الولاء والبراء لمحمد سعيد القحطاني، ص٩.

وحده، وذلك عهد يقطعه المسلم على نفسه فيخضع لربه، ولا يحتكم لغير شرعه. فمن قال: (لا إله إلا الله) عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها فهو المسلم الحق، ومن قالها وعمل بمقتضاها ظاهراً من غير أن يعتقدها بقلبه فهو المنافق، ومن قالها بلسانه وخالف مدلولها فأشرك مع الله فهو المشرك -ولو قالها مرات ومرات-. ويدل على ذلك جواب الحسن البصري لَّما قيل له: إن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؛ فقال: مَنْ قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال (وهب بن منبه) لمن سأله: أليس (لا إله إلاَّ الله) مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلاَّ وله أسنان.

وأما الشهادة الثانية، فمعناها: أقرُّ وأصدق وأعترف أن محمدا ﷺ هو رسول الله فنصدقه بكل ما أخبر، ونطيعه في كل أمر ونهي، ونقر أنه بلَّغَ الرسالة وأدَّى الأمانة.

ومما يستلزمه التصديقُ برسالة الرسول ﷺ: الإيمانُ بكل ما أخبرَ به عن وجود الله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. ومقتضى هذه الشهادة: أن لا نعبد الله إلاَّ بما شَرع، وأن نعتقد أنَّ رسولَ الله ﷺ بشر لا يستطيع أن يُصَرِّفَ من أمر الكون شيئاً.

ولقد ورد في فضل الشهادتين أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ:

(مَنْ قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة)[١].

---

(١) رواه البزار وسنده صحيح.

والمراد بالمخلص: من يعمل ويدعو إليها؛ إذ فيها توحيدُ الله الذي خلق الله الأنسَ والجنَّ لأجله، بل إن أركان الإسلام -كلها- من لوازم الإقرار بالشهادتين. ويدل على ذلك أن الرسول ﷺ بقي ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو الناس إلى النطق بالشهادتين، ويقف المشركون منه موقف المعرض المعاند الذي يأبى أن ينطق بهما؛ إذ علم هؤلاء أنَّ الرسول الكريم لم يطالبهم بالنطق بالشهادتين من غير أن يعملوا بمستلزمات هذا النطق. ولو كان المطلوب منهم التلفظ بالشهادتين فقط، لسارع أكثر الناس -إن لم نقل كلهم- بالتلفظ بهما.

فكما أن المصاب بمرض لا يُشفى بمجرد ترداد لسانه لاسم ذلك الدواء الذي يشفيه من غير أن يتناوله تناولاً صحيحاً، فكذلك شهادتا أن (لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله) لا تنفع من ينطق بهما ما لم ينزل معناهما في سويداء قلبه، مقراً موقناً بصدقهما، عاملاً بمقتضاهما.

شروط كلمة الشهادة:

وكلمة الشهادة لها شروط يجب أن تتحقق وهي:

١- العلم بمعناها نفياً وإثباتاً. فمن تلفظ بها من غير أن يدرك معناها لا تنفعه.

٢- أن يكون قلب قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة من غير شك.

٣-أن ينقاد قائلها ويستسلم لما اقتضته هذه الكلمة بلسانه وقلبه.

٤- أن تكون نية قائلها خالصة من أيةَ شائبةٍ كانت من شوائب الشرك.

توحيد العبادة:

يكرر المسلم في صلاته كل يوم وليلة مـرات كثيـرة قولـه تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أي نخصك بالعبادة والاستعانة والدعاء وحـدك دون سـواك. وهذه الآية الكريمة هـي خلاصة سورة الفاتحـة، والفاتحـة هـي خلاصة القرآن كله. وعبادة الله تعمُّ العبادات كلهـا مثـل: الـصلاة، والذبح، والنذر، والدعاء؛ فلا يكون ذلك إلا لله وحده. والرسـول ﷺ يقول: (الدعاء هو العبادة)[١]. فكما أن الصلاة لا تجوز إلا لله وحده، فكذلك الدعاء لا يجوز إلا من الله وحده: فلا يجوز مـن رسـول ولا وليّ لأنه عبادة، والله تعالى يأمر رسوله فيقول:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾[٢].

والله تعالى يستحق العبادة وحده؛ لأنه هو الذي خلق ما في هذا الكون كله: فهو مالكه وموجده من العدم، قال تعالى:

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَـهُ الْمُلْـكُ وَالَّـذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ۝إِنْ تَـدْعُوهُمْ لا يَـسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِـشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمـد في مسنده، وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه. أنظر: فيض القدير للمناوي ٣/٥٤٠.
(٢) سورة الجن، الآية ٢٠.
(٣) سورة فاطر، الآيات ١٣-١٤.

الاستعانة بالله وحده:

من أحاديث رسول الله ﷺ قوله:

(... إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله...)[1]

أي إذا طلبتَ الإعانة على أمرٍ من أمور الدنيا والآخرة، فأستعن بالله وحده: فهو الذي يقدر؛ إذ بيده كل شيء قال تعالى:

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاّ هُوَ﴾[2].

وهذا لا يعني حرمة الاستعانة بالأحياء فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا، فإن ذلك جائز لقول الله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾[3].

وقول رسول الله ﷺ:

(والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[4].

ولكنَّ الاستعانة المحرمة: أن يستعين المسلم بغير الله: كالأولياء الأموات أو الأحياء الغائبين؛ فإن هؤلاء لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضَرّاً. وهذا الحسن البصري يكتب إلى عمر بن عبد العزيز:

(لا تستعن بغير الله فيكلَكَ الله إليه. ومن كلام بعض السلف: يا رب عجبتُ لمن يعرفك كيف يرجو غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعينُ بغيرك)[5].

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) سورة الأنعام، الآية ١٧.
(٣) سورة المائدة، الآية ٢.
(٤) رواه مسلم في الدعوات / باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.
(٥) جامع العلوم والحكم لأبن رجب الحنبلي، ص١٦٨/دار الفكر.

وما أروع ما قرره الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمة الله عليه في كتابه (الفتح الرباني) إنه يقول:

(سَلُوا الله ولا تسألوا غيره. استعينوا بالله ولا تستعينوا بغيره. ويحك بأيِّ وجْهٍ تلقاه غداً وأنت تنازعه في الدنيا، معرِض عنه، مُقْبِل على خلقه، مشرك به، تُنْزِلُ حوائجك بهم، وتتكل بالمهمات عليهم. ارفعوا الوسائط بينكم وبين الله، فإنَّ وقوفكم معها هَوَس، لا ملكَ ولا سلطان، ولا غنىً ولا عزَّ إلاَّ للحق ﷻ. كن مع الحق بلا خلق)[1].

الاستغاثة:

الاستغاثة: طلب العون وتفريج الكُرَب. وهي لا تكون إلاّ في الشدة. ولها أربع حالات:

الحالة الأولى: الإباحة، وتتمثل في طلب الحوائج من الناس الأحياء إذا كانوا قادرين عليها. ولكن لا يجوز أن يطلب منهم بتضرع كما يتضرع الإنسان لله الخالق سبحانه.

الحالة الثانية: الندب، يُستحب للمسلم أن يستغيث بالله أو بصفة من صفاته في الأمور الاعتيادية: كقتال العدو مثلاً؛ فإن النبي ﷺ استغاث بالله في غزوة بدر، قال تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[2].

ومن أحاديث النبي ﷺ قوله:

---

(١) منهاج الفرقة الناجية لمحمد جميل زينو، ص٢٦-٢٧. الطبعة الرابعة.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٩.

((مَنْ نَزَلَ مَنْزِلا ثُمَّ قَالَ: [أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ] لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ))[1].

وتستحب الاستغاثة بالله -أيضاً- فيما لا يقدر عليه إلاّ الله وحده: كطلب الرزق، وإنزال المطر، قال تعالى:

﴿**وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنْ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

كما تستحب الاستغاثة باسم الله أو بصفة من صفاته؛ لأن النبيﷺ كان إذا كربه أمر قال:

((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))[3].

الحالة الثالثة: الوجوب، وذلك في حالة الشدة القصوى التي يترتب على ترك الاستغاثة هلاك الإنسان، فإن تركه مع وجوبه لحقه الإثم.

الحالة الرابعة: التحريم، وذلك حين يستغيث الإنسان بمن لا يقدر على الإغاثة، سواء كان إنساناً، أو جناً، أو ملكاً، أو نبياً، في حياته أو بعد مماته. قال تعالى:

﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ...**﴾[4].

---

(١) رواه الإمام أحمد، ومسلم في كتاب الدعوات (باب: في التعوذ من سوء القضاء ...) ٤/٢٠٨٠.
(٢) سورة يونس، الآية ١٠٦.
(٣) رواه الترمذي رقم ٣٥٢٢ (باب: رقم ٩٩)، وابن السني رقم ٣٣٧.
(٤) سورة النمل، الآية ٦٢.

شروط الإيمان:

هناك شروط يجب توافرها ليتحقق الإيمان لدى الإنسان وهي:

١- الاعتقاد الجازم بالقلب بالله ﷻ وبكل ما علم من الدين بالضرورة. فمن لم يعتقده بقلبه ويصدّق به فهو كافر. ويكون منافقاً إن تظاهر بالإسلام وأدى الفرائض. قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))[٢].

٢- النطق بالشهادتين: لا يصح إيمان المسلم إلاّ بعد أن ينطق بالشهادتين. وقد قال رسول الله ﷺ:

((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي
دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاّ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ))[٣].

وقال الإمام النووي:

((اتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار، لا يكون إلاّ

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥.

(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، وفي الإيمان (باب: ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى)، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: قوله ﷺ: [إنما الأعمال بالنية]).

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان (باب: فإن تابوا وأقاموا الصلاة)، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: الأمر بقتال الناس ...).

من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك، ونطق بالشهادتين. فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلاً إلاّ إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه لمعالجة المنية، أو لغير ذلك ...))[1].

٣- العمل بمقتضى كلمة الإيمان. ودليل هذا حديث رسول الله ﷺ:

((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ))[2].

لذلك قال السلف: إن الإيمان هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

الإيمان قول وعمل:

الإيمان: هو ما وقر في القلب وصدقه العمل. إنه الاعتقاد الجازم الذي لا تشوبه شائبة من الشك أو الريب بوجود الله تعالى ورسالاته

والمراد بالعمل: الامتثال لأوامر الله ورسوله من العبادات والجهاد في سبيل الله ... ذلك أن الاعتقاد وحده لا يكفي لنجاة الإنسان يوم القيامة ولو كان الاعتقاد وحده كافياً في النجاة لنفع إبليس -لعنه الله- فقد كان يعتقد أن الله واحد لا شريك له، وأن مصير الكائنات كلها إليه، ولكن حين صدر إليه الأمر من رب العالمين بالسجود لآدم

---

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي: ١٤٩/١.
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان عدد شعب الإيمان)، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه (باب: ذكر شعب الإيمان).

أبى واستكبر وكان من الكافرين، ولم تشفع له معرفته بالله. وقد قرر هذه الحقيقة القرآن الكريم قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ﴾(١).

وكثيراً ما يأتي في القرآن لفظ (الذين آمنوا) مقروناً بقوله: (وعملوا الصالحات)، يتضح من هذا أن الإيمان الحق لابد أن يتوافر فيه عنصران:

الأول: الاعتقاد الجازم الذي لا تشوبه شائبة من الشك بوجود الله، وأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد.

الثاني: الاستجابة الكاملة لما أمر الله به من العبادات، والخوف من الله، والتوكل عليه وحده ...

وقد فهم السلف الصالح هذه الحقيقة: فحكى الإمام الشافعي – رحمه الله– إجماع الصحابة والتابعين على أن الإيمان قول وعمل. وذكر الإمام الأوزاعي أن السلف كانوا لا يفرِّقون بين الإيمان والعمل(٢).

وقال أبو الحسن علي بن خلف في شرح صحيح البخاري: (مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص)(٣).

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٥.
(٢) محاسن المساعي في مناقب الإمام الاوزاعي، تأليف زين الدين بن تقي الدين بن عبد الرحمن الخطيب، ص١٣٩. علق عليه الأمير شكيب ارسلان. مطبعة عيسى البابي الحلبي/القاهرة.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ١/١٤٦.

وينقل الإمام النووي قول عبد الرزاق:

(سمعت مَنْ أدركت من شيوخنا وأصحابنا: سفيان الثوري ومالك بن أنس، وعبيد الله بن عمرو الأوزاعي، ومعمر بن راشد، وابن جريج، وسفيان ابن عيينة يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص. وهذا قول ابن مسعود، وحذيفة، والنخعي، والحسن البصري، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعبد الله ابن المبارك)[1].

وذكر ابن حجر أن البخاري قال:

(لقيتُ أكثر من رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيتُ أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص)[2].

هل الإيمان يزيد وينقص:

ذهب أكثر علمائنا إلى أن الإيمان يزيد وينقص. فالناس الذين يكثرون من طاعة الله هم أكثر إيماناً من غيرهم، بل نجد الإنسان نفسه يزيد إيمانه في بعض الأوقات، وينقص في أوقات أخرى: فحين يكثر من طاعة الله والعمل بأوامره والانتهاء عن نواهيه يكون أكثر إيماناً من الوقت الذي لا يعمل فيه من الطاعات إلا قليلاً، أو يرتكب ما نهى الله عنه! وتدل على ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانَاً...﴾[3].

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾[4].

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، ١/١٤٦.
(2) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأبن حجر العسقلاني، ١/٣٥-٣٦.
(3) سورة الأنفال، الآية ٢.
(4) سورة الأحزاب، الآية ٢٢.

﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ...﴾[1].

وعلى العكس من ذلك؛ فإن المعاصي تُضعف الإيمان. ويدل على هذا حديث رسول الله ﷺ:

(لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)[2].

وما مثل زيادة الإيمان ونقصه إلا كمثل المولود الجديد يكبر جسمه إذا تغذَّى، ويكبر فكره إذا تعلم وتهذب، ومع ذلك فإن جسمه لم يزد فيه يد ولا رجل ولا عين ولا أي عضو كان...! وهكذا الإيمان: فكلما غذيناه أزداد وكبر، أما إذا لم نغذه فإنه يبقى على صغره، وقد يموت إذا أُصيب بأمراض قاتلة ولم يعمل على مقاومتها.

إن النفس البشرية تتأثُر بالأدلة، وتزداد طمأنينتها كما تتأثر الأجسام الصلبة بالحفر: فكلما كانت الآلةُ التي تحفر بها قويةً يظهر أثر ذلك الحفر. وهكذا حال النفس الإنسانية بتأثيرها بالأدلة؛ فيحدث التفاوتُ بالتصديق.

الشرك:

الشرك: أن يجعلَ الإنسان لله شريكاً: في ألوهيته وعبادته.

فهو يؤمن بوجود الله، وبأنه خلق السموات والأرض، وأنه يدبر شؤون الخلق كلها، لكنه يعبد من دونه آلهة أخرى. وقد صور القرآن الكريم عقيدة هؤلاء المشركين فقال تعالى:

---

(١) سورة الفتح، الآية ٤.
(٢) رواه البخاري في كتاب الأشربة (باب: قول الله إنما الخمر والميسر ...)، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: بيان نقصان الإيمان بالمعاصي)، ١/٧٦-٧٧.

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[1].

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2].

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[3].

ومن الشرك أن يعتقد أنَّ غيرَه تعالى يضر وينفع، أو أنَّ أحداً يتوسط عند الله أو يقربه إليه زلفى، أو يرجو الإنسانُ من الموتى جلبَ النفع أو دفعَ الضر، أو يدعو غيرَ الله من الأنبياء والأولياء لطلب الرزق أو شفاء المرض، أو الاعتقاد بأن بعضَ الأولياء يستطيع أن يُديِّر شؤونَ الكون، أو يتصرفَ في اللوح المحفوظ ...

والشركُ الأكبرُ يُحبط عملَ الإنسان؛ لأن الله تعالى يقول:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4].

وإذا كانت الذنوب –كلها– قد يغفرها الله إن شاء، فإن الشرك بالله لا يغفره إلا بالتوبة وترك الشرك كله. هكذا نصَّ الله في قرآنه، قال تعالى:

---

(١) سورة الزخرف، الآية ٩.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦١.
(٣) سورة يونس، الآية ٣١.
(٤) سورة الزمر، الآية ٦٥.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا﴾[1].

والشركُ أنواع منه:

١- عبادة غير الله من أصنام وأوثان أو أجرام سماوية، وزعمهم أن لها القدرة على الخلق ...

٢- إشراك قسم من المخلوقات في بعض صفات الله: كالقول بوجود خالق للخير وخالق للشر، أو الاعتقاد بالتثليث.

٣- اتخاذ بعض الناس أرباباً لهم من البشر: وذلك إذا حللوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال، فأطاعوهم، قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ...﴾[2].

هذا هو الشرك الأكبر. وهناك ما يسمى بالشرك الأصغر وهو الشرك

الخفي. والمراد به: مراعاة غير الله في العبادة ومن أمثلته الرياء، قال تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3].

وقد نزلت الآية فيمن يطلب الحمد بجهاده.

والشرك الأصغر أنواع:

---

(١) سورة النساء، الآية ١١٦.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣١.
(٣) سورة الكهف، الآية ١١٠.

منـــه الحلف بغير الله: كأن يحلف الإنســـان بالنبي، أو الكعبة، أو تربة الوطـــن، أو بحياة فلان من الناس، أو بولي من الأولياء، أو بالآباء والأجداد ... قال رسول الله ﷺ:

(مَنْ حلَفَ بغير الله فقد أشرك)[١].

ومن أنواع الشرك الأصغر: تعليق التمائم[٢]؛ ذلك أن النـــاس كانوا يعتقدون أنَّ هذه التمائم تجلب لهم الخير، أو تدفع عنهم الـــشر! أما إذا كانت التميمة من آيات الله، أو فيها أســـماؤه وصـــفاته، فقـــد أختلف السلف فيها: فمنهم مَنْ أجاز ومنهم مَنْ منع.

ومن أنواع الشرك الرقى[٣]، والسحر، والتنجيم[٤]،والتولـــة[٥]، والكهانـــة[٦]، والعرافـــة[٧]، والنذر لغيـــر الله، والـــذبح لغيـــر الله، والطيَرة[٨] ... إلى غير ذلك من أنواع الشرك الكثيرة. وهكـــذا نجـــد الإسلام قد وقف موقفاً حازماً من الشرك؛ فنهى عنـــه وحـــذَّرَ منـــه، وأغلق كل المنافذ التي يمكن أن ينفذ منها أو يـــدلف. فيجـــب علـــى

---

(١) رواه الإمام أحمد، والترمذي، وحسَّنه الحاكم. أنظـــر: فـــيض القـــدير للمنـــاوي، ٦/١٢٠.

(٢) التمائم المنهي عنها: هي خرزات أو خرزة، كان العرب في الجاهلية يعلقونها على الأولاد أو غيرهم، زاعمين أنها تدفع عنهم الجن، أو تقيهم العين!

(٣) وهي كلمات وتمتمات كان أهل الجاهلية يقولونها، ويعتقدون أنها تدفع عنهم الأذى؛ فكانوا يرددون في الرقى كلمات غير مفهومة، يستعينون بها بغير الله!

(٤) المنجمون: هم الذين يزعمون أنهم يعرفون ما سيكون في المستقبل عـــن طريـــق النجوم والنظر فيها.

(٥) وهي كتابة كلمات وحروف وتعليق بعض الأشياء؛ زعماً أن ذلك يحبِّبُ المرأة إلى الرجل، ويحبب الرجلَ إلى المرأة!

(٦) هي عملية الإخبار عن المغيبات في المستقبل، أو الإخبار عما في الضمير.

(٧) العرافة: ادعاء معرفة الغيب سواء كان في المستقبل أم في الضمير، ويكون ذلـــك عن طريق الاتصال بالجن، أو النظر، أو الخط في الرمل، أو قراءة الفنجان.

(٨) الطيرة: هي التشاؤم بما يرى الإنسان أو يسمع؛ فيردّه ذلك عن حاجته التي عـــزم على فعلها: أو ما شابه ذلك. وقد دخل صاحب هذا التشاؤم بالشرك؛ لأنه لم يخلص توكله على الله.

المسلم أن يحذر من كل نوع من أنواع الشرك؛ واضعاً أمامه حديث رسول الله ﷺ:

(اللهم إنا نعوذ بك من أن نُشرِكَ بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه)[1].

أسباب الشرك:

هناك أسباب كثيرة جعلت الناس يتركون عقيدة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، ويدخل الشرك في نفوسهم، منها ما يأتي:

١- الإعجاب والتعظيم:

دعا القرآن الحكيم إلى احترام الوالدين، واحترام أنبياء الله ورسله، واحترام العلماء والمسنين ومن عُرفوا بالتقوى والصلاح ... فقال تعالى:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا۞وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ:

((الْعُلَمَاء وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ))[3].

---

(١) رواه الإمام أحمد، والطبراني بإسناد جيد، ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة.
(٢) سورة الإسراء، الآيات ٢٣-٢٤.
(٣) رواه البخاري في كتاب العلم (باب: العلم قبل القول والعمل ...)، والنسائي في كتاب الإيمان وشرائعه (باب: ذكر شعب الإيمان).

لكن الاحترام والتعظيم قد يخرج عن طوره الاعتيادي. ويزداد خروجه حتى يصل إلى التقديس. ومن هنا يدخل الشرك إلى النفس البشرية؛ ذلك أن التقديس لا يكون إلاّ لله وحده. وكل تقديس لإنسان أو ملك أو جني أو شمس أو قمر هو لون من ألوان الشرك. ومن هذا اللون -لون الإعجاب والتعظيم- ما ذكره القرآن على لسان نوح عليه السلام:

﴿... وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا۝وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[1].

ولقد أورد لنا ابن كثير في تفسيره كيف عُبِد (يغوث) و(يعوق) و(نسر). فعن محمد بن قيس قال:

((كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يعتقدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم؛ فصوروهم. فلما ماتوا وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر؛ فعبدوهم))[2].

ومن هذا اللون ما وقع به اليهود حين زعموا أن (عزيراً) ابن الله، وما وقع به النصارى حين زعموا أن المسيح ابن الله، قال تعالى:

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[3].

---

(١) سورة نوح، الآيات ٢٢-٢٣.
(٢) تفسير ابن كثير: ٤/٤٢٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
(٣) سورة التوبة،الآية ٣٠.

٢- الإيمان بالمحسوس وحده:

من قواعد الإيمان: الإيمان بالغيب. وهو أول صفة من صفات المتقين، قال تعالى:

﴿الم۝ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

لكن النفس البشرية قد تصاب بداء الإيمان بالمحسوس وحده، فتنكر ما وراءه، وتزعم أنه غير موجود.! والإيمان بالمحسوس – وحده– داء وبيل أُصيب به عدد ليس بالقليل من الناس قديماً وحديثاً؛ لأنهم تصوّروا –خطأ– أن حوّاسهم هي الطريق الوحيد للتعرف على كل شيء! وما درى هؤلاء انّ الحواس محدودة القوة كيفاً وكماً. ولقد وقع بنو إسرائيل في الشرك؛ فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام كما حكى القرآن الكريم:

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾(٢).

وتأصلت في نفوسهم المادية الجامحة، والإيمان بالمحسوس وحده، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً من صنم يعبدونه. قال تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، الآيات ١-٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ٥٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٣٨.

٣- الهوى والشهوات:

يأتي (الهوى) بمعنى الميل والحب والعشق. والمراد به: إرادة الشيء وتمنيه. وإذا أطلق لا يكون إلاّ بمعنى الذم. فهو سبب من أسباب الشرك، وقد يكون سبباً من أسباب الفسق -أيضاً-:

فيكون من أسباب الشرك: إذا جعل الإنسان منه إلهاً مطاعاً يعبد من دون الله. وإذا تأملنا في آيات القرآن الحكيم، نرى أنه قد جاء بكلا المعنيين: فجاء بمعنى الكفر الأكبر المخرج من الملة في قوله تعالى:

﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾(١).

وقوله تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾(٢).

وقوله:

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾(٣).

ومن الهوى الذي يكون إشراكاً مع الله: أن يصير (الهوى) مصدراً من مصادر التشريع، كما نجد ذلك في كثير من أنظمة العالم اليوم. فالحلال: ما يراه الهوى حلالاً، والحرام ما يراه حراماً -ولو خالف ذلك شرع الله-.

وأما (الهوى) الذي بمعنى الفسق أو المعصية، فقد جاء بآيات كثيرة، منها قول الله تعالى:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.
(٢) سورة الفرقان، الآية ٤٣.
(٣) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى۞فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1].

وهكذا يكون الهوى سبباً من أسباب الفسق والمعصية إذا ارتكب الإنسان ذنباً لا يخرجه عن ملة الإسلام، وذلك: كشرب الخمر، والزنا ... من غير استحلال.

وباختصار نقول: هناك أحكام تتضمن أوامر ونواهي جاء بها الأنبياء عن الله ﷻ ولابد للإنسان أن يشعر برقابة الله –سبحانه– ويروّض نفسه على الالتزام بتلك الأوامر والنواهي. لكن اتباع الهوى والشهوات يحول –في بعض الأحيان– دون ذلك. ويوغل قسم من الناس في إتباعها، حتى يصيروا عبيداً لها؛ فتصير آلهة تعبد من دون الله!!

وهكذا يكون اتباع قسم من الشهوات لوناً من ألوان الشرك بالله، نعوذ بالله من الشرك وأهله!.

٤– طاعة الذين يشرعون لأنفسهم، ويرفضون الحكم بما أنزل الله:

هناك من الناس من يقوم بوضع تشريعات لبني البشر لا تمت إلى الإسلام بصلة، ويحملهم على جعلها منهاج حياة لهم، ويرفض الحكم بما أنزل الله، فيحل لهم ما حرّمه الله، ويحرّم ما أحله الله؛ إتباعاً للهوى. وهؤلاء بعملهم هذا قد نصبوا أنفسهم آلهة تعبد من دون الله – ولو لم يدّعوا ذلك–؛ لأن الذي له حق التشريع هو الله تعالى

---

(١) سورة النازعات، الآيات ٤٠–٤١.

وحده: فهو الذي يحل الحلال ويحرّم الحرام. وكل من ادعى أن له الحق في التحليل والتحريم، فقد جعل نفسه شريكاً لله. وكل من يطيع هؤلاء في التحليل والتحريم عن رضىً، فقد أشرك المشرّع في العبادة مع الله.

أنواع الشرك:

يظن كثيرٌ من الناس أن الشرك نوع واحد، يتمثل في عبادة الأصنام والأوثان بالسجود لها، وتقريب القرابين إليها، كما كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية عند مبعث النبي ﷺ. ولكن دائرة الشرك هي أوسع من ذلك، إنها تتمثل بصور كثيرة منها ما يأتي:

١- شرك التقرب والزلفى:

حين نتأمل في قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[1].

نجد العرب عند مبعث النبي ﷺ كانوا يعتقدون أن الذي يستحق العبادة هو الله تعالى وحده، لكنهم كانوا يشركون به حين يعتقدون أن الأصنام والأوثان تقربهم إلى الله الذي يستحق -وحده- العبادة. وقد عمل الشيطان في إغواء كثيرٍ من الناس، وجعلهم يشركون بالله من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ فصاروا يطوفون حول الأضرحة في ديار الإسلام وغيرها، معتقدين أنها تقربهم إلى

(١) سورة الزمر، الآية ٣.

الله زلفى! وزاد هؤلاء في شركهم حتى صاروا يخشون من يطوفون بأضرحتهم أكثر من خشيتهم من الله تعالى.

إنها أساليب الشيطان في إدخال الشرك في نفوس الناس.

٢- شرك الطاعة:

العبادة هي الطاعة. وعبادة الله هي طاعته، والتلقي عنه في كل شأن من شؤون الحياة. فكل من يعتقد بوجود الله، وأنه يتصف بأوصاف الكمال، عليه أن يطيعه. أما الذي لا ينصاع لأوامر الله ونواهيه، ويتوجه بالطاعة لغيره في التحليل والتحريم، فقد أشرك بالله -ولو كان يعتقد في قرارة نفسه أن الله واحد لا شريك له-. ويدلنا على هذا المعنى ما روي عن عدي بن حاتم الطائي الذي كان قد تنصر في الجاهلية، فقد دخل على النبي ﷺ وفي عنق عدي صليب، والنبي الكريم يقرأ قول الله تعالى:

﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾؛ فقال له عدي: إنهم لم يعبدوهم؛ فقال النبي ﷺ:

((بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، واحلوا لهم الحرام فاتبعوهم؛ فذلك عبادتهم إياهم))[١].

ويبدو من هذه الرواية أن عدياً كان يعتقد أن العبادة هي الركوع والسجود فقط؛ فبيّن له النبي الكريم أن طاعة الأحبار والرهبان في تحريم الحلال، وتحليل الحرام هي إشراك بالله. ونقول

---

(١) رواه الإمام أحمد، والترمذي في كتاب تفسير القرآن حديث ٣٠٩٥.

في ضوء ما ذكرناه: أن كل من يأمر بخروج المرأة سافرة مخالطة الرجال، ويطيعه الناس في ذلك، فقد اتخذوه إلهاً من دون الله.

٣- شرك الرياء:

المراد بالرياء أن يتوجه الإنسان بعمله لغير وجه الله تعالى، من أجل أن ينال ثناء الناس ومديحهم وحبهم له. وهذا محبط للعمل، وليس له ثواب في الآخرة. قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ:

((إِذَا جَمَعَ اللَّهُ ﷻ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَحَدًا، فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ﷻ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ))[٢].

وقال:

((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ لا يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنْ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا))[٣].

وروى الإمامان البخاري ومسلم: أَنَّ رَجُلا جاء إلى النَّبِيِّ ﷺ فسأله: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حمية، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ من قومه، فأي ذلك فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

---

(١) سورة الكهف، الآية ١١٠.
(٢) رواه الإمام أحمد في المسند: ٦٦/٣ و٢١٥/٤.
(٣) رواه أبو داوود في كتاب العلم: (باب: في طلب العلم لغير الله تعالى).

((مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العليا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))[1].

ولقد حذر الله تعالى من الشرك؛ فقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ:

((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ))[2].

من آثار الشرك:

للشرك آثار وبيلة، منها:

١- إحباط العمل:

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[3].

٢- الخلود في النار:

لا يعرف حقيقة الخسارة في الدار الآخرة إلاّ من علم ما أعدّ الله للمشرك في دار الخلود، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا۝إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلاّ شَيْطَانًا مَرِيدًا۝لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا۝وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم (باب: من سأل وهو قائم عالماً جالساً) وفي كتاب الجهاد وغيرهما، ومسلم في كتاب الإمارة (باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا).

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (باب: من أشرك في عمله غير الله).

(٣) سورة الزمر، الآية ٦٥.

وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا۝يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا۝أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[١].

تصور هذه الآيات حقيقة الخسارة الكبرى التي تنال المشركين. إنها خسارة العذاب الدائم في نار الجحيم. وننظر في هذه الحياة الدنيا، فنجد الإنسان إذا تعرّض لحريق في عضوٍ من أعضاء جسده، تصير حياته قطعة من العذاب: فهو يتقلب على جمر الغضى ويذوق العذاب الأليم في كل لحظة من اللحظات في ألوان عديدة. وهذا العذاب الذي يناله في الدنيا لا يُعدّ شيئاً يذكر بالنسبة إلى العذاب الذي أعده الله للمشرك في الدار الآخرة. وإذا كان الإنسان بعد إصابته بالحروق يموت ويتخلص من ذلك العذاب، فإن الإنسان المشرك يظل شقياً في دار الخلود، فلا هو يموت، ولا يحيا الحياة الطيبة، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[٢].

الكفر:

الكفر لغة: التغطية والستر. يقال لليل كافر؛ لأنه يستر الأشياء بظلمته، ويقال للإنسان الكافر كافر؛ لأنه ستر فطرته وعقله بالجهل. والإنسان الكافر يعلم أنه ما خَلَقَ نفسه، فلا بد أن يكون له خالق، لكنه لا يهتم بهذا، فيهيم في طبيعة جامدة، أو وثن أصم، أو يكون تائهاً:

---

(١) سورة النساء، الآيات ١١٦-١٢١.
(٢) سورة النساء، الآية ٥٦.

كريشة في مهب الريح، فهو مَنْ جحد شيئاً مما افترض الله الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه. وينقسم الكفر إلى قسمين: الكفر الأكبر وهو ما يسمى الكفر بأصل الإيمان، والكفر الأصغر وهو ما يسمى الكفر بفروع الإسلام.

أولاً: الكفر الأكبر: وهو الكفر الصريح الواضح بالله ﷻ وتجري على صاحبه أحكام الكفر المعروفة، ويكون من المخلدين في النار، ويشير إلى هذا القسم من الكفر قول الله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ۝خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[1].

وعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قال:

((دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنْ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ))[2].

والكفر بأصل الإيمان هذا ينقسم إلى أقسام:

١- كفر إنكار: ككفر الوثنيين من عُبَّاد الطبيعة، الذين لا يؤمنون بأن لهذا الكون خالقاً عظيماً هو الذي يدبر شؤون الكون كله،

---

(١) سورة البقرة، الآيات ١٦١-١٦٢.
(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن (باب: قول النبي ﷺ: [ستروْن بعدي أموراً تنكرونها...]

ولا يؤمنون أن لله ملائكة أو كتباً أو رسلاً مبشرين ومنذرين، ولا يؤمنون -أيضاً- باليوم الآخر الذي يجازى فيه الناس على ما اعتقدوا من عقائد، وما عملوا من أعمال إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. هؤلاء الذين قال الله فيهم:

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1].

وقد عبر بعضهم عن هذه العقيدة، فقالوا: إن هي إلاّ أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيء بعد ذلك.

٢- كفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه، لكنه يكفر به: ككفر المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ.

٣- كفر عناد: وهو أن يقرّ بلسانه، ويعترف بقلبه، لكنه لا يدين بذلك حسداً وبغياً.

٤- كفر نفاق: وهو أن يقرّ بلسانه ولا يعتقد بقلبه.

ثانياً: الكفر الأصغر: وهو الكفر الذي لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويترك في الآخرة لمشيئة الله: إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، ولا يخلد في نار الجحيم، وتناله الشفاعة. وهذا هو الذي يطلق عليه اسم الكفر بفروع الإسلام: وهو كفر دون كفر. مثال هذا النوع من الكفر: ما قصة الله ﷻ في قرآنه مما كان من أمر الهدهد وسليمان عليه السلام، قال تعالى:

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٢٩.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[١].

ومعنى: ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾:أأشكر النعمة،أم أكفرها فلا أشكر لها؟

ويمثل للكفر الأصغر –أيضاً– بحديث النبي ﷺ:

((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))[٢].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه:

((لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ))[٣].

وقوله:

((مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ))[٤].

وقوله:

((اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ))[٥].

وقوله:

((أُرِيتُ النَّارَ فَإِذَا أَكْثَرُ أَهْلِهَا النِّسَاءُ يَكْفُرْنَ)). قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: ((يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ. لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ))[٦].

---

(١) سورة النمل، الآية ٤٠.
(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: ما يُنهى من السباب واللعن)، وفي الإيمان والفتن، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: قول النبي ﷺ [سباب المسلم فسوق]).
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الترمذي في كتاب الأيمان والنذور (باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله).
(٥) رواه الإمام أحمد، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: إطلاق اسم الكفر على الطعن).
(٦) رواه البخاري في كتاب الإيمان (بابل: كفران العشير، وكفر دون كفر).

فهذا الكفر هو كفر النعمة والإحسان، ولا يخرج صاحبه من الملة، وهو كفر دون كفر؛ لذلك نرى الإمام البخاري قد ترجم له في صحيحه بعنوان (كفران العشير، وكفر دون كفر).

وإذا كان كفران النعمة لا يخرج صاحبه من الملة، فلأنه انشغل بالنعمة عن واهبها الحقيقي: وهو الله تعالى، أو لأنه لم يقم بحق شكرها.

والفيصل بين قسمي الكفر: الخلود في النار: فالقسم الأول يخلد في النار، والثاني يعذب عذاباً شديداً ولا يخلد.

والكافر بأصل الإيمان: إنسان تائه في هذا الوجود، لم يستخدم فطرته وعقله وعلمه ليعرف مَنْ خلقه، ولماذا خلقه، وما مصيره بعد الموت؛ فأنكر وجوده -سبحانه- واستكبر عن عبادته، وأبى أنْ يستجيب لأوامر الله ونواهيه. ولو استخدم عقله وعلمه لما كفر بالله وارتكس في هذا الحضيض الآسن من جمود الفكر.

تكفير من سبّ الله تعالى:

كل من سبّ الذات الإلهية، أو استخفّ بها، أو استهزأ، فإنه يكفر؛ لقول الله تعالى:

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ۝لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[1].

واختلف العلماء في قبول توبة هؤلاء:

---

(١) سورة التوبة، الآيات ٦٥-٦٦.

فذهب الجمهور إلى قبولها، وذهب الحنابلة إلى عدم قبولها، وأن صاحب ذلك يقتل في كل حال في الدنيا.

تكفير منْ سبَّ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم:

كل من سبّ نبياً من الأنبياء، أو استخف به فإنه يكفر. وقد ذهب الحنفية والشافعية إلى أن بسببه يكون مرتداً فيستتاب فإن تاب وإلاّ قتل. أما المالكية والحنابلة، فقد قالوا بأنه يقتل حداً ولا تقبل توبته إن تاب.

الكافر وقبول عمله:

والكافر لا يقبل منه عمل؛ لأنه لا يصدق بالحق الذي جاء من عند الله. فهو قد عطل أدوات العلم عن معرفة الله: فلا يرجو ثواب ربه ولا يخاف عقابه، ولا يبتغي بعمله وجه الله، ولا يهمه إن كان عمله حلالاً أم حراماً ... لذلك لا يستحق الثواب على العمل، وإن كان فيه ما فيه من النفع الجزيل للإنسانية: كهذه المخترعات الحديثة التي نفعت الإنسانية: كالكهرباء، والطائرات، ووسائط النقل؛ فإنه يأخذ أجره في الدنيا ويعاقب على كفره وضلاله؛ لأنه لم يبحث عن الدين الصحيح الذي يوصله إلى الإيمان الحق. قال الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[١].

---

(١) سورة النور، الآية ٣٩.

الفسق:

الفسق في اللغة: هو الخروج عن الطاعة، وعن الدين، وعن الاستقامة.

وفي الاصطلاح: هو الخروج عن الطاعة، وتجاوز الحد بالمعصية.

والفاسق: هو مَنْ وقع بالكبائر –قليلة كانت أو كثيرة–. وقد يكون (الفسق) شركاً، وقد يكون إثماً. ويطلق لفظ (الفاسق) في غالب الأمر على مَنْ أقرّ بحكم الشرع والتزم به، ثم أخلّ ببعضه: كالمسلم الذي ترك الفرائض، أو فعل المحرمات.

وينقسم الفسق إلى قسمين: الفسق الأكبر، والفسق الأصغر.

أما الفسق الأكبر، فإنه يخرج صاحبه من الملة: كالشرك والكفر. ويمثل له بقول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[١].

وقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاّ الْفَاسِقُونَ﴾[٢].

فهذا الفسوق مرادف للكفر، ونافٍ للإيمان، ومخرج من الملة.

وأما الفسق الأصغر، فيراد به المعصية التي لا تخرج صاحبها من الإسلام. ويمثل له بقول الله تعالى:

﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[٣].

وقوله:

---

(١) سورة التوبة، الآية ٨٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٩٩.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٧.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

أما رسول الله ﷺ، فيقول في هذا المعنى:

((سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ))[2].

يتضح من هذا أن المراد بالفسوق هنا: هو الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الإيمان.

فلفظ (الفسق) إذن يطلق ويراد به الكفر المخرج من الملة، ويطلق -أيضاً- ويراد به الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الإيمان.

وقد أجمع العلماء على حرمة (الفسق)؛ لأنه خروج عن أحكام الله، وأن صاحبه يعاقب بالحد أو التعزير.

الظلم:

من معاني الظلم في اللغة: مجاوزة الحد، ووضع الشيء في غير موضعه. ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي. وينقسم إلى قسمين: ظلم أكبر، وظلم أصغر.

١- الظلم الأكبر: وهو يشبه الكفر بالله والشرك. فهو ينزع الإيمان من صاحبه، قال تعالى على لسان لقمان:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3].

٢- الظلم الأصغر: هو الذنب الذي لا يخرج صاحبه من الملة. ويتمثل في ظلم الناس أنفسهم، وظلم العباد بعضهم مع البعض

(١) سورة الحجرات، الآية ٦.
(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب (باب: ما يُنهى من السباب واللعن)، وفي الإيمان والفتن، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: قول النبي ﷺ [سباب المسلم فسوق]).
(٣) سورة لقمان، الآية ١٣.

الآخر، وظلم العباد أنفسهم بتقصيرهم بامتثال أوامر الله ونواهيه، قال تعالى:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾(١).

وقال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ...﴾(٢).

وقال على لسان آدم عليه السلام وزوجه:

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾(٣).

يتبين من هذه الآيات وغيرها: أن المراد بالظلم هنا هو الظلم الأصغر الذي لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام.

وفي هذا المعنى ورد حديث رسول الله ﷺ:

((الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه. فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، قال الله: **﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**، وأما الظلم الذي يغفره الله، فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذي لا يتركه الله، فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدير لبعضهم من بعض))(٤).

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣١.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٢٣.
(٤) رواه الطيالسي، والبزار عن أنس. أنظر: صحيح الجامع الصغير ٣٩٦١.

من هذه النصوص وغيرها يتبين لنا أن لفظ (الظلم) يطلق ويراد به الشرك، ويطلق ويراد به الذنب، والمعصية التي لا تخرج صاحبها عن الدين الحق.

ويورد الإمام ابن تيمية حديث النبي ﷺ:

((الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل))، فيذكر قول ابن عباس وأصحابه: [كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق]. ويشير -رحمه الله- إلى أن هذا ما ذهب إليه أهل السنة: كأحمد وغيره[١].

الردة:

الردة: هي رجوع المسلم عن الإسلام، سواء اعتنق ديناً آخر أم لا. وشروط الردة: البلوغ، والعقل، والاختيار. وتحصل بأمور عديدة، منها: أمور اعتقادية، ومنها أمور قولية، ومنها: أمور فعلية. وتثبت بالشهود، أو بالاعتراف، أو بهما معاً. وبالردة ينفصم عقد الزواج، سواء كانت الزوجة مسلمة، أو كتابية، أو مرتدة. ولا يجوز أكل ذبيحة المرتد. وتنقسم الردة إلى قسمين:

١- الردة المجردة: وصاحبها لا يؤذي المسلمين، ولا يشتم الإسلام، فهذا يُستتاب قبل أن يُقتل: فإن تاب وإلاّ قُتل.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٦٧/٧.

٢- الردة المغلظة: وصاحبها يؤذي المسلمين، أو يكيد لهم ... فهذا لا يستتاب، ولا تقبل توبته بعد القدرة عليه، ولا يعامل معاملة صاحب الردة المجردة. قال الإمام (ابن تيمية) رحمه الله:

((ويُفرّق في المرتد بين الردة المجردة، فيقتل إلاّ أن يتوب، وبين الردة المغلظة، فيقتل بلا استتابة))[1].

النفاق:

النفاق: هو مخالفة الباطن للظاهر وهو نوعان: نفاق أكبر ونفاق أصغر، ويمكن أن نطلق عليه: نفاقاً اعتقادياً، ونفاقاً عملياً.

١- النفاق الاعتقادي -وهو النفاق الأكبر-: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر. ويترتب على صاحبه ما يترتب على الكافر. فينتفي الإيمان عن صاحبه، ويخلد في نار جهنم، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[2].

وقال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[3].

هذا هو النفاق الاعتقادي وهو النفاق الأكبر وصاحبه كافر في الباطن

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠٣/٢٠.
(٢) سورة النساء، الآية ١٤٥.
(٣) سورة التوبة، الآية ٦٨.

ويتظاهر بالإسلام، وهو خارج عن ملة المسلمين.

وإذا أُطلق لفظ (النفاق) و(المنافقين) في القرآن، فإن المراد به النفاق الاعتقادي هذا، قال الله تعالى:

﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(١).

٢- النفاق العملي –أو النفاق الأصغر-: وصورته أن يتصف المسلم المصدق بكل ما جاء به الإسلام، لكنه يتصف بصفات نهى عنها النبي ﷺ. وهذا النفاق لا ينفي عنه صفة الإيمان، فهو إذن دون النفاق الاعتقادي، وصاحبه يعذب في الدار الآخرة، لكنه لا يخلد في نار جهنم، وهو ممن تناله شفاعة الشافعين.

وقد تحدث رسول الله ﷺ في هذا النوع من أنواع النفاق فقال:

((أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ))(٢).

وقال:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))(٣).

وقد أوضح هذه القضية الإمام النووي فقال:

---

(١) سورة المنافقون، الآية ١.
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: خصال المنافق).
(٣) متفق عليه. وانظر: زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم: ١٢٦/١.

((أجمع العلماء على أن منْ كان مصدّقاً بقلبه ولسانه، وفعل هذه الخصال، لا يحكم عليه بكفر، ولا هو يخلد في النار ... وقوله (منافقاً خالصاً) معناه: شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال ... وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي ﷺ معناه عند العلماء مطلقاً فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم: نفاق العمل ... وحكى الخطابي -رحمه الله- قولاً آخر معناه: التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال التي يخاف عليه أن تفضي به إلى حقيقة النفاق))[1].

تكفير المسلم:

ولا نُكفِّرُ أحداً من أهل القبلة أقرَّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما إذا اقترف ذنباً عُلِمَ تحريمهُ من الدين بالضرورة إلا إذا اعتقد حلَّه، أو كذَّبَ صريح القُرآن، أوِ عمل عملاً لا يحتمل تأويلاً غيرَ الكفر: فلا يكون إخراج المسلم من الإسلام إلاّ بدليل قاطع لا يحتمل التأويل، وهو الكفر بأصل الإيمان. ولا نجدَ في الأحاديث النبوية أن الرسول ﷺ قد حكم على واحد من الصحابة بالكفر لوقوعه بكبيرة من الكبائر: كالقتل، والزنا، وشرب الخمر ... ونحن نرجو لكل محسن من المؤمنين أنْ يعفوَ الله عنه، ويُدْخله في رحمته في الجنة. بل لقد ذهب المحققون من العلماء إلى أبعدَ من ذلك فقالوا: إِن المسألة إذا كان فيها وُجوهٌ توجب التكفير ووجهٌ واحد لا يوجبه، فعلى المفتي أن يحكم

(١) شرح صحيح مسلم للإمام النووي: ٢/٤٦-٤٧.

بعدم التكفير؛ تحسيناً للظن بالمسلم، اللهم إلاَّ إذا صرَّح هو بإرادته لما يوجبه الكفر؛ فعند ذاك لا ينفع التأويل. وما أروع ما قاله الطحاوي:

(ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدِّقين ... ولا نكفِّرُ أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ... ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه)[1].

نواقض الإيمان:

ومع ذلك، فقد يَرِدُ على قلب المسلم اعتقاد أو عمل، يُخْرِجُه من حقيقة الإيمان ويُدخله في الكفر، وهذه الاعتقادات أو الأعمال كثيرة، وسأذكر بعضها على سبيل المثال:

١- **الاعتراض على شيء من تشريع الله:** وَضَعَ الله شرائعَ للبشر على ألْسنة رسله وهو العليم بما يصلحهم. فإذا اعترض معترض على شيء منها فقد اعترض على مُنَزِّلها سبحانه، وهذا هو الكفر بعينه: فمن اعترض على حكم إباحة تعدد الزوجات، أو الطلاق، أو السرقة، أو حد الزنا فقد كفر، ولا ينفعه ترداده للفظ الشهادة. وهكذا الأمر فيمن يرى أن نظام الإسلام غير صالح لحكم المجتمعات، فإنه كافر مرتد بلا شك. ولا يخرج المسلم من الإسلام ويدخل في الكفر باعتراضه على حكمة تشريع الله إلا إذا صار ذلك الاعتراض عقيدةً راسخة في قلب صاحبه.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣١٣ وما بعدها، الطبعة الثامنة، ١٤٠٤-١٩٨٤/المكتب الإسلامي.

٢- الحكم بغير ما أنزل الله: أنزل الله الشريعة، وأمر عباده أن يحكِّموها فيهم، ولم يجعل لهم الخيار في ذلك. ومن مقتضى الإيمان تنفيذُ أمره ونهيه، ولكن: هل يُعَدُّ كافراً من حكَمَ في قضيةٍ بغير حكم الله؟

والجواب: هناك ثلاث صور في هذه القضية:

أ- أن يحكم بغير شرع الله معتقداً أن ما حكَمَ به هو الأحسنُ والأفضل. وهذا كفر بإجماع المسلمين؛ إذ فضَّلَ نظامَ البشر على شريعة رب العالمين.

ب- أن يحكم بغير شرع الله، معتقداً أن ما حكَمَ به مساوٍ لحكم الله. وهذا كفر بالإجماع كذلك؛ لأنه يساوي الله بخلقه في تشريع الأحكام.

ج- أن يحكم بغير شرع الله، ويعتقدُ أنَّ شرعه تعالى هو الحق وما عداه ليس كذلك، لكن شهوة النفس غلبته، فحكمَ بذلك. وهذا هو الذي قال فيه عبد الله بن عباس: (كفر دون كفر). أي أنَّ هذا الكفر لا يخرجه من ملة الإسلام.

ولا بد لنا أن نشير هنا إلى أن المراد بشرع الله: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما سوى ذلك مُعَرَّض للخطأ والصواب.

٣- الاستهزاء بالمسلم لإسلامه، ومعاداته لتمسكه بدينه: كالاستهزاء بحجاب المرأة المسلمة الذي أمر الله به؛ لأن ذلك يعني الطعنَ بالآمر سبحانه وتعالى، وهذا كفر لا شك فيه.

٤- موالاة أعداء الله من المحاربين لديننا المعادين لنا: أي نصرهم وتأييدهم على إخواننا المسلمين؛ لأن ذلك حرب لدين الله.

٥- الرضا بفشوِّ المنكر وانتشاره: إن من مستلزمات الإيمان إنكار المنكر باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب. والمراد بإنكار المنكر بالقلب: كراهيته، وبغضه، وبغض فاعليه: فإن لم يكن شيء من ذلك، يكن الراضون بفشوِّ المنكر وانتشاره كفاراً وإن زعموا أنهم مسلمون.

فمن أحبَّ أن تتعرى النساء في الشوارع والمجتمعات العامة، ليمتِّعَ الناس أنفسهم بالحرام فهو كافر.

ولابد لنا أن نشير هنا إلى أن الذي يفعل شيئاً من الكفر ظناً منه أنه من الإسلام فليس بكافر، حتى تقوم الحجة عليه؛ ويَرُدَّ ذلك تعنتاً أو استكباراً ... وكذلك لا يكون كافراً مَنْ فَعَلَ فعلاً مناقضاً للإيمان، وهو غير عالم أن فعله هذا مخرج له من الإيمان. فإن عَلِمَ وجَحَدَ وكابر، فقد كفر.

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة: هو الاعتقاد الجازم بوجودهم اعتقاداً لا يتطرق إليه أي شك أو ريب قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ لما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان:

(أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[2].

والملائكة عالم لطيف لا يُدْرَكُ بالحواس: فهم مخلوقات نورانية تتشكل بأشكال مختلفة، قد طهرهم الله من الشهوات: فلا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يتصفون بأوصاف البشر من الذكورة والأنوثة، والأكل والشرب والنوم، وقد نزههم رب العالمين عن ارتكاب الخطايا: فلا يعصون لله أمراً، وجرَّدهم من الاختيار، فلا يملكون اختياراً أو شيئاً منه كما يملك البشر، بل خَلَقَهم مقسورين على طاعته، قال الله تعالى فيهم:

﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[3].

وتقوم الملائكة بتصريف شؤون العالم بإرادته ومشيئته.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٣٦.
(٢) رواه مسلم، في أول كتاب الإيمان.
(٣) سورة التحريم، الآية ٦.

كيف خُلقت الملائكة:

لا نعرف كيف خُلِقت الملائكة؛ إذ لم يأتنا شيء من ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة. ومن الجهل أن نختلقَ شيئاً في كيفية خَلْقهم. ويكفينا أن نعلم أنها خُلقت من نور وقد قال رسول الله ﷺ:

((خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ))[1].

وكذلك لا نعلم شيئاً عن تفصيلات أحوالهم. والذي استأثر علمُه بذلك هو الله وحده والمؤمن الصادق الإيمان يقر بكل ما أخبر به الحكيم الخبير إجمالاً وتفصيلاً.

خُلِقت الملائكةُ قبل آدم:

نحن نؤمن أن الله ﷻ خلق الملائكة قبل آدم بدليل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[2].

عدد الملائكة:

والملائكة عدد كثير لا يعلمه إلا الله، قال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا

---

(١) رواه مسلم: ٤/٢٢٩٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٣٠.

وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ في حديث المعراج:

(فَرُفِعَ لي البيتُ المعمور، فسألتُ جبريل فقال: هذا البيتُ المعمورُ يصلي فيه كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك)[٢].

مراتب الملائكة:

لم تكن الملائكة في مرتبة واحدة في الفضل، بل درجاتهم متفاوتة: فمنهم الملائكة المقربون: كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومنهم دون ذلك في المنزلة. وقد كان النبي ﷺ يقول:

((اللهم ربَّ جبْرائيلَ ومِيكَائيلَ وإِسْرَافيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بإذنك، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ))[٣].

قال ابن قيم الجوزية –رحمه الله–:

((... فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل

---

(١) سورة المدثر، الآية ٣١.
(٢) رواه مسلم، في كتاب الإيمان (باب: الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات) رقم ٢٥٩.
(٣) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها (باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه) حديث ٧٧٠.

وكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ
في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم))[1].

ولقد أجمع العلماء على أن الملائكة الأربعة، وحملة العرش، والروحانيين، ورضواناً، ومالكاً هم أفضل الخلائق، وأن صحابة النبي ﷺ والتابعين والشهداء والصالحين هم أفضل من سائر الملائكة.

أعمال الملائكة:

جعل الله أعمالاً خاصة للملائكة: فمنهم مَنْ وكَّله الله بأداء الوحي إلى الرسل: وهو جبريل عليه السلام، ومنهم مَنْ وكَّله الله بقبض الأرواح: وهو مَلَكُ الموت، وله أعوان من الملائكة، ومنهم مَنْ وكله الله بالنفخ في الصور: وهو إسرافيل، ومنهم الموكل بالمطر: وهو ميكائيل، ومنهم الموكل بأعمال البشر: وهم الكرام الكاتبون، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها: وهو رضوان ومَنْ معه، ومنهم الموكل بالنار وعذابها: وهو مالك ومَنْ معه، ومنهم الذين يَسألون الناس في القبر وهما: منكر ونكير، ومنهم حَمَلَةُ العرش ... ويدل على أعمال الملائكة آيات كريمة، وأحاديثُ نبوية شريفة.

رؤية الملائكة:

حجب الله رؤية الملائكة عنا فلا نراهم، وكَشَفَ بعضَهم لبعض عباده: فرأى النبيُّ ﷺ سيدَنا جبريل عليه السلام على صورته: له ستمائة

(١) إغاثة اللهفان، ٢/١٢٢، تحقيق محمد سيد كيلاني، الطبعة الأخيرة ١٣٨١هـ-١٩٦١م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة.

جناح، قد سدَّ الأُفق. وأَتى بصورةِ رجل إلى النبي ﷺ وعنده عدد من الصحابة، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وَوَضَعَ كفيه على فخذيه، وسألَ النبيَّ ﷺ عن (الإسلام) و(الإيمان) و(الإحسان) وعن (الساعة وأماراتها) وأجاب النبي عن ذلك. وبعد أن انطلق جبريل أخبرهم النبي ﷺ أن السائل هو جبريل عليه السلام، أتاكم يعلمكم دينكم[1].

وكذلك تمثَّلَ جبريلُ لمريم بشراً سوياً فخاطبته وخاطبها.

من ثمرات الإيمان بالملائكة:

١- لما كانت الملائكة على ما ذكرنا من العظمة؛ فإن الإيمان بها يُثمر الإيمانَ بخالقها وهو الله ﷻ بعظمته وقوته وقدرته وسلطانه.

٢- شكر الله تعالى على ما أنعم على عباده؛ إذ وكل فيهم الملائكة الذين يقومون بحفظهم، ويقومون بأعمالهم التي وكلها الله بهم في الدنيا والآخرة.

٣- يورث الإيمانُ بالملائكة محبَتهم؛ لأنهم يستغفرون للمؤمنين، ويعبدون الله: **﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾**[2].

٤- يلقي الإيمانُ بالملائكة في مشاعر المسلم تحذيراً من ارتكاب الذنوب والمعاصي؛ لكي لا يكتبها المَلَكُ المكلفُ به، كما يَدْعوه ذلك إلى عمل الخير؛ ليكتبها الملك له حسنات، والرسول ﷺ يقول:

---

(١) أنظر نص الحديث في صحيح مسلم في كتاب الإيمان (باب: الإسلام والإيمان ١٥٧/١. وأبو داوود في كتاب السنة (باب: القدر) ٦٣/٧. والترمذي في كتاب الإيمان (باب: ما جاء في وصف جبريل عليه السلام للنبي ﷺ). والنسائي، ٩٧/٨.

(٢) سورة التحريم، الآية ٦.

(إياكم والتعري؛ فإن معكم مَنْ لا يفارقكم إلاَّ عند الغائط، وحين يُفْضي الرجلُ إلى أهله؛ فأستحيوهم وأكْرموهم)[1].

٥- حين يؤمن المسلم بأن الملائكة خَلْقٌ من خَلْق الله، تتطهر عقيدتُه من شوائب الشرك. فهم ليسوا بآلهة ولا يستحقون العبادة: فقد كان من المشركين من يعبدهم، ويسجد ويتقربُ بالنذور لهم.

لقد كرَّم الله ﷻ الإنسان، وأسجدَ ملائكتَه لآدم، وأعطاه من العلم ما لم يعط الملائكة. فكيف يرضى لنفسه أن يَعْبدَ الملائكةَ ويسجدَ لها وهي مخلوقةٌ وليست بخالقة؟!!

الجن:

أجسام نارية عاقلة خفية، لها قوة التشكل. وهي عالم خاص من العوالم الغيبية، يختلف عن البشر والملائكة، ولا نعرف عنها شيئاً إلا ما ورد في القرآن الكريم، والصحيح من الحديث الشريف. فقد ذكر القرآن أن الجن خُلِقتْ من النار، قال تعالى:

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾[2].

وأنها سمعت القرآن من رسول الله ﷺ وهو لا يعلم بحضورها حين قراءتِه.

والجن مكلفون، فهم يُشبهون البشر في التكليف، وهم مطالبون بالإيمان بالله وعبادته وحده، ومنهيون عن الكفر والعصيان، وأن لديهم حريةً واختياراً.

---

(١) رواه الترمذي في الباب ٤٢ (ما جاء في الاستتار عند الجماع).
(٢) سورة الحجر، الآية ٢٧.

قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

ويدل على أنهم مكلفون -أيضاً- أن الله ﷻ لما ذكر الشياطين أمر بالتحرز من شرورهم، وذكر ما أعدّ لهم من العذاب في الدار الآخرة. ولا ينال العذاب إلاّ من خالف الأمر والنهي، كما تحدث في ثواب الطائعين منهم، فقال تعالى على لسانهم:

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ: فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا۝وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[2].

والجن لا تعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، بل هي تجهل في بعض الحالات ما هو مشاهد أمام أعينها فكيف تعلم الغيب؟! فهذا سيدنا سليمان عليه السلام يموت مستنداً إلى عصاه وهي لا تعلم بموته، وظلت تعمل بأمره وتنصب، حتى أكلت حشرة الأرض عصاه التي كان مستنداً إليها حين مات؛ فسقط سيدنا سليمان على الأرض ... حينذاك علمت الجن بموته. وقد عمل على التلاعب بعقول قسم من النساء والبسطاء من الرجال: المشعوذون من هذا الطريق.

الشياطين:

الشياطين: هم العاصون من الجن، والمتمرد من الشياطين يسمى عفريتاً. والعفريت: هو الخبيث الداهية الذي بلغ القمة في الكفر والظلم. وتقوم بأعمال الشر والفساد في الأرض. وقد تمكنت من

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٢) سورة الجن، الآيات ١٤-١٥.

إضلال أمم كثيرة وغوايتها: فهي تقوم بالتفريق بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجه. ومن أساليبها في التضليل تحسين القبيح حتى يراه الإنسان حسناً، وتقبيح الحسن حتى يراه الإنسان قبيحاً.

والشياطين لا تملك أن تتسلط على عباد الله المتقين؛ لأنهم يلتجئون إليه سبحانه في كل صغيرة وكبيرة.

وحين خرج إبليس عن طاعة الله طلب أن يبقيه إلى يوم القيامة؛ فأجابه رب العزة إلى طلبه:

﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ۝قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾(١).

وهكذا يظل الشيطان يقوم بدور الفساد والإضلال إلى يوم القيامة.

والشياطين ليست من الملائكة بدليل قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف، الآيات ١٤-١٥.
(٢) سورة الكهف، الآية ٥٠.

الإيمان بالكتب

أنزل الله عدداً من الكتب والصحف على رسله تتضمن عقيدة التوحيد، وأحكاماً وإرشادات وأوامرَ ونواهيَ ومواعظ؛ كي يسلك الإنسان طريق الخير: فأنزل كتباً على موسى وداوود وعيسى ومحمد، وأنزل صحفاً على إبراهيم وموسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

أما الكتب الأخرى التي جاء بها سائر الأنبياء والرسل، فلم نعرف عنها أي شيء كان، بيد أننا نؤمن بكل كتاب نزل من عند الله. وأما الذي يحكم على هذه الكتب، ويقرر صحيحها من محرفها، فهو القرآن الكريم.

وحين أنزلَ اللهُ الكتبَ على رسله -عدا القرآن الكريم- فإنه لم يتكفل بحفظها، بل استحفظ عليها أناساً، لكنهم لم يحافظوا عليها؛ فحصل فيها تبديل وتغيير.

القرآن الكريم:

القرآن الكريم: هو كتاب الله المنزّل على محمد ﷺ باللسان العربي، المتعبد بتلاوته المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر. وقد تحدى الله فصحاء العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أنْ يأتوا بسورةٍ واحدةٍ من مثله فعجزوا أيضاً.

والقرآن الكريم: هو آخر الكتب السماوية، لا يُنسخ ولا يُبَـدَّل. وقد نزل مُفَرَّقاً حسب الوقائع، أو جواباً عن أسئلة، أو حسب مقتضيات الأحوال في ثلاثٍ وعشرين سنة. وتضمن خلاصةَ التعاليم الإلهية التي وردت في (التوراة) و (الإنجيل) و (الصحف)، وسائر ما أنزله الله على رسله. فهو كلمةُ الله الأخيرة الصالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان إلى أن تقوم الساعة!

مقتضى الإيمان بالقرآن:

والإيمان بالقرآن الكريم يقتضي تحليل حلاله، وتحريم حرامه، والاعتبار بما ورد فيه من قصص، والتسليم لمتشابهه، والوقوف عند حدوده، وتحكيمه في كل قضية من قضايانا.

التوراة:

التوراة: هي الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا موسى عليه السلام وهي لفظ عبراني معناه: (التعليم) أو (الشريعة).

والتوراة هي أعظم كتب بني إسرائيل:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[1].

وحين صدَّق القرآن بالتوراة، فإنه لم يُصدِّق إلا بأصولها الأُولى التي أنزلها رب العالمين على سيدنا موسى عليه السلام. أما التوراة التي يتداولها الآن أهل الكتاب، فقد دخلها التحريف والتبديل منذ أمدٍ

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٤.

بعيد، وليس لها سند صحيح يتصل بسيدنا موسى عليه السلام. ويدل على ذلك التحريف والتبديل: أن التوراة المتداولة الآن بين اليهود هي غير التوراة المتداولة بين النصارى. والمسلم يؤمن بأصل التوراة الأولى التي أنزلها الله على سيدنا موسى عليه السلام، ولا يؤمن بالتوراة المتداولة بين القوم الآن.

الإنجيل:

الإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام. وهو مصدق للتوراة ومتمم لها، قال تعالى:

﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وتَضَمَّنَ الإنجيل البشارة بمحمد ﷺ، وذِكْرَ شيء من صفاته، وصفةِ صحابته رضوان الله عليهم!

لكن هذا الإنجيل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام لم يدوّن في وقت نزوله، والسبب في ذلك: أن حوارييه وأصحابه عليه السلام، كانوا يعايشون حالة من الاضطراب؛ بسبب ما تعرّضوا له من اضطهاد على يد الدولة الرومانية. فلم يستطع أحد أن يدوّن (الإنجيل) خوفاً من عيون الدولة. لذلك لم يبدأ الناس بتدوينه إلاّ بعد ثلاثين عاماً من رفع سيدنا عيسى عليه السلام. وهناك رواية أخرى تذكر أن التدوين حصل بعد سبعين عاماً من الرفع. وفي هذه الأحوال كان أصل

---

(١) سورة المائدة، الآية ٤٦.

الإنجيل قد فقد. فلما بدأ الناس بتدوينه دخلت عليه إضافات ليست من الإنجيل في شيء، وصار الناس يتداولونها بعضهم عن بعض. فلم يكن (الإنجيل) المتداول الآن بين النصارى هو (الإنجيل) الذي أنزله الله – تعالى – على سيدنا عيسى عليه السلام، بل هي ذكريات شخصية كتبها الذين قاموا بتدوينه، وضمنوها قسماً من الأقوال المنسوبة إلى سيدنا المسيح عليه السلام.

ونحن نؤمن بالإنجيل الأصل الذي أنزله الله على سيدنا عيسى عليه السلام، ولا نؤمن بالأناجيل التي يتداولها القوم الآن؛ ذلك أنَّ هذه الأناجيل لم يُعرفْ لها سند صحيح متصل إلى سيدنا عيسى عليه السلام. وقد اختِيرتْ هذه الأناجيل الأربعة من سبعين إنجيلاً وأُلغيت الأناجيل الأخرى، وذلك في (مجمع نيقية) سنة ٣٢٥م. أما الإنجيل الخامس الذي ظهر، فهو (إنجيل برنابا)، ويختلف اختلافاً كثيراً في صميم العقيدة النصرانية عن الأناجيل الأربعة.

إنجيل برنابا:

الإنجيل: هو كلام الله الذي أوحاه إلى المسيح عيسى أبن مريم عليه السلام بوساطة جبريل (روح القدس). لكنَّ هذا الإنجيل لم يُدَوَّن إلا بعد أن رفع الله سيدنا عيسى عليه السلام بمدة غير قليلة من الزمن. والذين قاموا بكتابة الإنجيل كانوا كثرة كاثرة؛ لذلك صارت روايات الأناجيل متضاربة، فلا تكاد تجد إنجيلين اثنين يتفقان في ذكر حادثه واحدة. وقد تنبه إلى هذه المأساة التي تهدد كيان النصرانية في الصميم رجالُ

الكنيسة فأجمعوا على قبول أناجيل أربعة هي أناجيل: متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا. أما الأناجيل الأخرى فلم يأخذوا بشيء منها. ومن هذه الأناجيل التي تنكر لها رجال الكنيسة (إنجيل برنابا). وقد تداول هذا الإنجيل علماء الأمم الأوربية وأبدوا اهتمامهم به، على الرغم من عدم اعتراف الكنيسة به، رغم أن قوة النسبة فيه لا تقل عَمَّا في الأناجيل الأربعة. وبرنابا -كاتب الإنجيل-: إما أن يكون من الحواريين الأثني عشر، أو من الرسل السبعين. وسواء كان من هؤلاء أو أولئك، فإنه قديس من قديسيهم ورسول من رسلهم باتفاقهم هم.

ولما كانت العقيدة في إنجيل برنابا قريبة من العقيدة الإسلامية، فقد زعم قسم من المستشرقين والمنصرين أن مؤلفه رجل مسلم. والحوادث التاريخية تنفي هذا الزعم: فقد كان هذا الإنجيل متداولاً من قبل قسم من النصارى قبل ولادة الرسول ﷺ. فهذا (البابا جلاسيوس الأول) الذي تربع على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م كان قد أصدر أمراً نهى فيه عن مطالعة عدد من الكتب، ومنها نهيه عن مطالعة (إنجيل برنابا).

ويختلف هذا الإنجيل عن الأناجيل الأربعة بأشياء كثيرة، من أهمها:

١- أن المسيح لم يكن إلهاً ولا أبناً للإله.

٢- وأن يسوع لم يصلب، وإنما الذي صلب هو (يهوذا) الخائن الذي شُبِّهَ به.

ولا أزعم أن هذا الإنجيل هو الذي أنزله الله -كله- على سيدنا عيسى ﷺ؛ لأنه يختلف اختلافا يسيراً عن أصول القرآن العامة؛ ذلك أنّ برنابا لم يكتبه إلا بعد أن رفع الله عيسى إلى السماء بفترة من الزمن.

الزبور:

الزبور: هو الكتاب الذي أنزله الله على داوود ﷺ. ولم يأت بشرع جديد ينسخ به شرع موسى ﷺ، بل كان عبارة عن مواعظ، وترغيب في المنافع، وتنفير من القبائح ... ويحتوي على مجموعة من الأناشيد والترانيم الدينية، المليئة بالمناجاة الربانية، والأدعية والأذكار.

ويسمى (الزبور) عند أهل الكتاب بـ(المزامير)، وعددها ١٥٠ مزموراً. وليس في الزبور أحكام، بل هو أدعية وتضرعات وأناشيد. وقد أصاب الزبورَ ما أصاب التوراة والإنجيل من التحريف. فنحن نؤمن بالزبور الذي أنزله الله على سيدنا داوود ﷺ، قبل أن يدخله تحريف وتغيير.

صحف إبراهيم وموسى:

نحن نؤمن أن الله ﷻ أنزل صحفاً على إبراهيم وموسى عليهما السلام. لكنَّ هذه الصحف فُقِدَتْ، ولم يبق شيء منها إلا ما أشار إليه القرآن الكريم، والحديث الشريف، قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى۝وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى۝بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا۝وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى۝إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى۝صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾[١].

وقال تعالى:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى۝وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى۝أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى۝وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى۝وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى۝ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى۝وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[٢].

وعن أبي ذر ﷺ قال: قلتُ يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالاً كلها:

(أيها الملك المسلط[٣] المبتلى[٤] المغرور[٥]، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم؛ فإني لا أردها وإن كانت من كافر. وعلى العاقل -ما لم يكن مغلوباً على عقله- أن يكون له ساعات: فساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ﷻ وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب. وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً[٦] إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو لمعاش، أو لذة في غير محرّم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومَنْ حسب كلامه من عمله قلَّ كلامه إلاَّ فيما يعنيه).

---

(١) سورة الأعلى، الآية ١٤-١٩.
(٢) سورة النجم، الآية ٣٦-٤٢.
(٣) المسلّط: صاحب السلطان القوي.
(٤) المُبتلى: الممتحن بالحكم.
(٥) المغرور: الذي أصابته الغفلة فنسي حقوق الله.
(٦) ظاعناً: مرتحلاً.

قلتُ: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى عليه السلام؟

قال: كانت عبراً كلها:

(عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح. عجبتُ لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبتُ لمن أيقن بالقَدَر ثم هو ينصب، عجبتُ لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبتُ لمن أيقَنَ بالحساب غداً ثم لا
يعمل ...)[1].

القرآن نَسَخَ الكتبَ السماوية كلها:

ولقد نسخ القرآن الكتب السماوية كلها ... تلك الكتب التي امتدت إليها أيدي أهل الكتاب تحريفاً وإخفاءاً وعبثاً بقسم من أحكامها. وعقيدتنا أن ما ورد فيها من أحكام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- ما صدقها القرآن فهي صحيحة فنؤمن بها.

٢- ما كذبها القرآن فهي باطلة، ونعتقد أن ذلك مما حرفه البشر من كلام الله.

٣- ما سكت عنه القرآن فنسكت عنه؛ حتى لا نكذب بحق أو نصدق بباطل، فقد قال رسول الله ﷺ:

(لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: [آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليكم ...])[2].

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه –واللفظ له– والحاكم وقال: صحيح الإسناد. أنظر العقائد الإسلامية تأليف السيد سابق، ص١٦٠-١٦٢، الطبعة الأولى ١٣٨٣-١٩٦٤، دار الكتاب العربي بمصر.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (باب: الأحكام التي تعرف بالدلائل رقم ٧٣٦٢ من فتح الباري.

من ثمرات الإيمان بكتب الله:

١- تبيان عناية الله بخلقه ورحمته بهم؛ إذ جعل لكل قوم كتاباً ليهديهم إلى ما فيه خيرهم في دنياهم وأُخراهم.

٢- تبيان حكمة الله؛ إذ جعل سبحانه لكل أُمة ما يناسبها من الكتب، وجعل القرآن العظيم نظامَ حياة، صالحاً للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان.

٣- شكر الله تعالى على هداية الناس بهذه الكتب.

الإيمان بالرسل

أرسل الله عدداً من أنبيائه ورسله إلى الناس لتعريفهم بالله، ودعوتهم لعبادته وحده. وقد بلَّغَ هؤلاء الرسالة وأدّوا الأمانة ونصحوا الأمة، وجاءوا بمعجزات باهرات تدل على صدقهم، فأصبح تصديقُهم واجباً، ومناصرتهم فرضاً، والاقتداءُ بهم لازماً.

لماذا تعددت الأنبياء والرسل:

عندما نقرأ تاريخ الأنبياء والرسل، نرى أن الله ﷻ أرسل نبياً بعد نبي أو رسولاً بعد رسول لأحد الأسباب الآتية:

١- أن تكونَ دعوةُ الرسول المتقدم قد اندرست، أو أصابها ما أصابها من انحراف أو نسيان؛ فتظهر الحاجة إلى عرض رسالته على الناس من جديد؛ فيرسل رسولاً آخر ليقوم بالمهمة نفسها التي قام بها الرسول الذي تقدمه في الزمن.

٢- أن تكون رسالة النبي المتقدم غير تامة؛ فيرسل الله رسولاً آخر لإتمامها.

٣- أن تكون رسالة النبي المتقدم منحصرةً في أمة خاصة، وتكون أُمم أُخرى بحاجة إلى رسالة ذلك الرسول؛ فيرسل الله رسوله إلى الناس كلهم كما كان في رسالة محمد ﷺ؛ إذ أرسله الله إلى الناس كافة، وجعل رسالته خالدة باقية إلى أن تقوم الساعة.

عدد الأنبياء والرسل:

أما عدد الأنبياء والرسل فليس محصوراً لدينا، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قصصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... ﴾[1].

ولقد عدد لنا القرآن الكريم أربعة وعشرين رسولاً هم:

١	آدم	٢	إدريس	٣	نوح	٤	هود
٥	صالح	٦	إبراهيم	٧	لوط	٨	إسماعيل
٩	اسحق	١٠	يعقوب	١١	يوسف	١٢	أيوب
١٣	شعيب	١٤	موسى	١٥	هرون	١٦	يونس
١٧	داوود	١٨	سليمان	١٩	الياس	٢٠	اليسع
٢١	زكريا	٢٢	يحيى	٢٣	عيسى	٢٤	محمد

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين!

وقد ذكرت أسماء ثمانية عشر منهم في سورة الأنعام، قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ۝وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاً هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ۝وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى

---

(١) سورة غافر، الآية ٧٨.

وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ۝وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1].

أما الستة الباقون، فقد ورد ذكرهم في آيات متفرقة من القرآن الكريم.

أولو العزم من الرسل:

والأنبياء والرسل ليسوا بدرجة واحدة في الفضل، بل هم درجات، وقد فضل الله بعضهم على بعض، وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ.

وهناك من الرسل مَنْ يسمون بأولي العزم؛ لأنهم تحملوا أكثَر من غيرهم في تبليغ رسالة الله: فقد كانت عزائمهم قوية، وجهادهم متعباً، وابتلاؤهم شديداً. وهؤلاء أولو العزم من الرسل خمسة:

١- محمد ﷺ

٢- إبراهيم ٣- موسى

٤- عيسى ٥- نوح صلوات الله وسلامه عليهم.

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾[2].

هؤلاء اُختلف في نبوتهم:

هناك عدد من الناس اُختلف في نبوتهم، فعدَّهم قسم من العلماء من الأنبياء، ولم يعدّهم القسم الآخر، وهم:

---

(١) سورة الأنعام، الآيات ٨٣-٨٦.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٧.

١- **الخضر:** وهو صاحب موسى عليه السلام، وجاءت قصته في سورة الكهف. وقد ذهب الجمهور إلى أنه نبي، وذهب غيرهم إلى أنه عبد صالح وليس بنبي. ولكن يدل على نبوته قول الله تعالى حكاية عنه:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾(١).

٢- **لقمان:** وقد ذكر في السورة التي تحمل اسم (سورة لقمان) وقد قال بنبوته قسم من العلماء، قال ابن كثير:

((كان جمهور السلف على انه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة)).

٣- **ذو الكفل:** وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنْ الصَّابِرِينَ۝وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾(٢).

قال ابن كثير: الظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي، قال: وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبياً وإنما كان رجلاً صالحاً، وحكماً مقسطاً عادلاً، قال: وتوقف ابن جرير في ذلك. والله أعلم(٣).

٤- **عزير:** قال ابن كثير: ((المشهور أن عزيراً نبي من أنبياء بني إسرائيل))(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير: ٩٩/٣
(٢) سورة الأنبياء، الآيات ٨٥-٨٦.
(٣) البداية والنهاية: ٢٢٥/١.
(٤) البداية والنهاية: ٤٦/٢.

ما يجب في حق الرسل:

لابد أن يتصف الأنبياء بصفات معينة، ويستحيل أن تنتفي أية صفةٍ كانت من هذه الصفات وهي:

١- العصمة: ومعناها أن الرسل محفوظة ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأية معصية كانت. فهم لا يقترفون ما يتنافى والخلق الكريم، ولا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرَّماً بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة، فيحتمل أن تقع منهم مخالفات يسيرة لا تخل بمروءتهم ولا تقدح بكرامتهم ولا شرفهم.

٢- الصدق: فيستحيل على النبي أو الرسول الكذب؛ لأنه ينقل وحي الله إلى الناس.

٣- الأمانة في تبليغ رسالة الله من غير تحريف أو تبديل أو إخفاء شيء؛ لأن ذلك خيانة.

قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ۝لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ۝ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ۝فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[١].

٤- الفطانة: وهي حدة الذكاء، وعمق الفهم، ورجاحة العقل ...

٥- تبليغ ما أرسله الله به لا يكتم من ذلك شيئاً حتى لو لحقه أذىً كبير بعد تبليغه، ويستحيل عليه أن يكتم شيئاً أمره الله بتبليغه. وقد خاطب الله محمداً ﷺ بقوله:

---

(١) سورة الحاقة، الآيات ٤٤-٤٧.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1].

٦- السلامة من العيوب المنفرة: فلا يصاب الرسول بمرض منفر؛ لأن ذلك يحول بينه وبين الاتصال بالناس. أما ما ذكر عن سيدنا أيوب عليه السلام من الأمراض المنفرة التي أصابته، فهي من الإسرائيليات التي يحرم على المسلم أن يعتقد صحتها.

ويستحيل اتصاف الرسل بضد هذه الصفات.

الإيمان بالرسل لا يقبل التبعيض:

نحن نؤمن برسل الله كلهم ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[2]. فمن كَفَرَ بواحد من الرسل فقد كفر بالله. وهكذا يظهر الفرق بين المسلمين الذين يؤمنون برسل الله كلهم وبين اليهود والنصارى الذين لا يؤمنون برسالة محمد ﷺ، مع أن رسلهم قد بشرت بالنبي محمد ﷺ، ودعت أممهم إلى الإيمان به.

الرسول بشر:

وكل رسول من رسل الله إنما هو من البشر، يصيبه ما يصيب البشر من المرض والنسيان الذي لا علاقة له بتبليغ الدعوة. وهو يجتهد كسائر الناس في المسائل الدنيوية من الزراعة والحروب وغير ذلك. وقد يصيبه ما يصيبه من آلام واضطهاد وعذاب من الظلمة المتجبرين.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٥.

ما يجب على الأمة مما يتعلق بالأنبياء والرسل:

لمّا كان الأنبياء والرسل اصطفاهم الله لتبليغ شريعته، وجبت أحكام على الناس بحقهم، وهي ما يأتي:

١- وجوب الإيمان بهم على الإجمال والتفصيل.

أما الإيمان بهم إجمالاً، فيكون بالإيمان بهم كلهم سواء علم اسم كل واحد منهم أم لا.

وأما تفصيلاً، فبأن يؤمن بأن إبراهيم نبي، وكذلك كل الأنبياء المتفق على نبوتهم ...

والإيمان بالأنبياء إجمالاً وتفصيلاً قد نصّ الله عليه في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾(١).

فمن شك بنبوة من أجمع العلماء على نبوتهم فهو كافر، وأما من شك بنبوة من اختلف بنبوتهم كالخضر ولقمان فلا يكفر.

٢- وجوب طاعتهم: يجب على كل مكلف أن يطيع النبي الذي بعث فيهم. ومعروف أن كل نبي يبعث في قومه خاصة، قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٦.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٥٩.

وأما رسالة محمد ﷺ فكانت عامة إلى البشر كله إلى أن تقوم الساعة، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[١].

وقال النبي ﷺ:

((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ...))[٢].

أما اتباع الديانات الأخرى بعد بعثة محمد ﷺ، فيجب عليهم – كلهم– الإيمان به والعمل بشريعته.

٣– وجوب توقيرهم:

يجب على كل مكلف أن يعظم الأنبياء ويوقرهم، ويحرم عليه أن يقول أي قول كان ينقص من قدرهم، كما يحرم أن يستخف بأي واحد كان منهم، فإن فعل ذلك فقد كفر؛ لأن الأنبياء فضلهم الله على البشر، وقد قال تعالى:

﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣].

فكل من انتقص واحداً منهم يكون قد كذب القرآن.

الحكمة من إرسال الرسل:

هناك حِكَم كثيرة من إرسال الله الرسل إلى الناس منها:

---

(١) سورة سبأ، الآية ٢٨.
(٢) رواه مسلم، ١/٣٧٠–٣٧١، طبعة الحلبي من حديث أبي هريرة.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٨٦.

١- أرسل الله الأنبياء والرسل ليَعرِّفوا الناس بربهم، ويدعوهم إلى عبادة الله وحده قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[1].

٢- أرسلهم ليبشروا المؤمنين المتقين الطائعين بنعيم مقيم في الآخرة، وينذروا الكافرين والعاصين بعذاب جهنم، وليقيموا الحجة على الخلق قال تعالى:

﴿رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

٣- أرسلهم ليكونوا قدوةً حسنةً في كل قول من أقوالهم وعمل من أعمالهم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

٤- أرسلهم بعقيدة واحدة، وأمرهم أن يقيموا الدين بعقيدته وشريعته وأخلاقه ويحافظوا عليه، ونهاهم عن التفرق في الدين قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.
(٢) سورة النساء، الآية ١٦٥.
(٣) سورة الأحزاب، الآية ٢١.
(٤) سورة الشورى، الآية ١٣.

٥- أرسلهم ليبيِّنُوا للناس الأعمال الصالحة التي إن أخذوا بهـا زكت نفوسهم، وتطهرت من أدران الرذائل، وغرست فيها الفـضائل قال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَـيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِـي ضَـلالٍ مُبِينٍ﴾[١].

ختم النبوة:

ولقد ختمت النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ، فلا نبي بعده ولا رسول، قال الله تعالى:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِـنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٢].

وقال ﷺ:

(أنا خاتم النبيين لا نبيَّ بعدي)[٣].

وقال:

(مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانـاً فأحـسنه وأجمله إلا موضع لَبِنَة من زاوية من زَواياه، فَجَعَلَ الناسُ يطوفـون به ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبِنة؟ قال: فأنا اللَّبِنة، وأنا خاتم النبيين)[٤].

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٤٠.
(٣) رواه الإمام أحمد في باقي مسند الأنصار رقم ٢١٣٦١، وأبو داوود فـي كتـاب الفتن والملاحم رقم ٣٧١٠، والترمذي في كتاب الفتن رقم ٢١٤٥.
(٤) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين)، ٤/١٧٩١.

فإذا كان نبي الله محمد ﷺ خاتم النبيين، فإنه -ولا شك- خاتم المرسلين؛ لأن خَتْمَ الأعم يستلزم ختم الأخص، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن محمداً ﷺ بُعثَ إلى الناس كافة، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾(١).

وقال:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾(٢).

فإذا كانت رسالته ﷺ إلى الناس كلهم، فلا بد أن تكون هذه الشريعة كاملة تامة، لا تحتاج إلى رسالة نبيٍّ آخر.

على أن ما ذكرناه لا ينافي نزول سيدنا عيسى عليه السلام في آخر الزمان؛ لأنه حين نزوله يحكم بشريعة محمد ﷺ؛ لأن الشريعة الإسلامية جعلها الله صالحة للتطبيق في كل زمان وفي كل مكان إلى أن تقوم الساعة.

بعثة النبي محمد ﷺ:

كان عدد من الأحبار والرهبان ومَنْ لهم معرفةٌ بالرسل والأنبياء، يتحدثون عن بعثة رسول منتظر. فهذا (سيف بن ذي يزن الحميري) يستمع إلى نَسَب عبد المطلب المتصل بإسماعيل عليه السلام، فيبشره بأن النبيَّ المنتظر سيكون من نسله -أي نسل- عبد المطلب.

---

(١) سورة سبأ، الآية ٢٨.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٨.

وهذا (قسٌّ بنُ ساعدة الإيادي) يقول في خطبته المشهورة في سوق عكاظ:

(إن لله ديناً هو أحبُّ إليه من دينكم –أي دين قومه العرب– ونبياً قد حان حينه، وأظلكم أوانه).

وهؤلاء يهود المدينة كانوا يكثرون من إعلانهم عن قدوم نبي منتظر، ويتوعدون العرب بأنهم سيتبعونه، ويقتلون (العربَ) قتل (عاد) و (إرم) قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1].

وهناك بعضٌ من الرهبان وغيرهم، استطاعوا أنْ يتحققوا من أنَّ محمداً ﷺ هو النبي المنتظر. فهذا الرسول الكريم –وقد تمَّ له من العمر أثنتا عشرة سنة– خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في سفره الأول، والتقى (أبو طالب) (بحيرا الراهب) الذي تفرَّس في محمد ﷺ فسألَ أبا طالب:

ما هذا الغلامُ منك ؟

أبو طالب: ابني.

الراهب: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً.

أبو طالب: فإنه ابن أخي.

الراهب: فما فعل أبوه؟

---

(١) سورة البقرة، الآية ٨٩.

أبو طالب: مات وأُمُّه حُبْلى به.

الراهب: صدقت؛ فارجع به إلى بلدك، وأحْذرْ عليه يهود[1].

وهذا (النجاشــي) يسمع آياتٍ كريمات يتلوها أمامه (جعفر بــن أبي طالب)؛ فيبكي حتى يُبِلَّ لحيتَه ويقول:

(إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة)[2].

وهذا (عبد الله بن سلام) يتقدم إلى النبي ﷺ لما قدم النبــي إلــى المدينة ويتأملُ فيه. فلما تحقَّقَ من علاماتِ النبوة فيه أعلنَ إسلامه.

وهذا (زيد بن ســعنة) وهو من أحبار اليهود، أسلم لمَّا تأكَّدَ مــن علامات النبوة فيه، وبايَعَ الرسولَ الكريم، وشهدَ معه مشاهد كثيــرة حتى توفي في غزوة (تبوك) مقبلاً غير مدبر[3].

وهكذا الأمر في (ســلمان الفارســي) و (مخيريــق اليهــودي) وغيرهم.

تغيير للبشارات:

لكن أهل الكتاب حسداً من عند أنفسهم، قاموا بتغييــر البــشارات التي يعرفونها في التوراة والإنجيل؛ لكي لا تكونَ للمــسلمين علــيهم حجة. ومع ذلك فقد بقي في توراتهم وأناجيلهم ما يشيرُ إلى بعثة النبي محمد ﷺ ويكفينا أن نعلم: أن كثيراً من العلماء المتقــدمين رأوا بــأمِّ أعينهم نصوصاً من التوراة والإنجيل، تنص نصاً واضحاً على نبــوة

(١) رواه الترمذي، ٤/٢٩٦. والبزار.
(٢) رواه الإمام أحمد برقم ١٧٤٠.
(٣) أخلاق النبي ﷺ لأبي الشيخ، ص٨٣، تحقيق أحمد محمد مرسي. مكتبة النهــضة المصرية / القاهرة / ١٩٧٢.

سيدنا محمد ﷺ، بل تنص نصاً صريحاً على أن اسم النبي المنتظر هو محمد: كابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ والماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ، والفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ، وغيرهم كثير. وقد جادل هؤلاء العلماءُ أهلَ الكتاب، وأقاموا عليهم الحجة ... لكنهم بمرور الزمن، أخفوا هذه النصوص، وحرّفوا فيها. فهذا العلامة ابن تيمية ينقل لنا نصاً من (سفر دانيال في نعت النبي ﷺ فيقول:

(وقال دانيال النبي أيضاً: فلا يزالون ملعونين (بني إسرائيل) عليهم الذلة والمسكنة، حتى أبعثَ نبيَّ بني إسماعيل الذي بَشَّرت به هاجر، وأرسلتُ إليها ملاكي وبشرها، وأُوحي إلى ذلك النبي، وأُعلمه الأسماء، وأُزينه بالتقوى، وأجعل البرّ شعاره، والتقوى ضميره ... أُسري به إليَّ، وأرقيه من سماء إلى سماء حتى يعلوَ فأدنيه وأُسلِّمُ عليه، وأُوحي إليه، ثم أرده إلى عبادي بالسرور والغبطة ... فيدعو قومه إلى توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأى من آياتي فيكذبونه ويؤذونه...)

قال ابن تيمية: (وهذه البشارةُ الآن عند اليهود والنصارى يقرأونها ويقولون: لم يظهر صاحبها بعد)[1].

ومن البشارات التي وردت في التوراة:

(أن نبياً سيظهر في مكة، وأن اسمه يرتفع فيها، وأنه يركب الجمل، وأنه يحارب بالسيف، وأنه ينتصر هو وأصحابه، وانه يباركُ

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دينَ المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ٤/٤-٥.

عليه في كل يوم (وهذا ما يفعله المسلمون عند التشهد)، وأن ملوك اليمن تأتيه بالقرابين، وأن علامة سلطانه على كتفه بقدر بيضة الحمام)[1].

وهذه البشارة واضحة كل الوضوح لا تحتاج إلى تعليق. بيد أن كثيراً من أهل الكتاب المعاصرين ينكرون هذه البشارة فلا بد إذن أن نستشهد بالتوراة التي يتداولها الناس الآن:

جاء في سفر التثنية ١٨:١٨ قول الرب لموسى:

(أُقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أُوصيه به ...)

وهذا النص مجمل. وفسره اليهود بأن رسولاً من ولد إسحق سيبعثه الله. وكأن الله ﷻ ألهم اليهود هذا التفسير للنص؛ لتظل البشارة باقية؛ لأنهم لو عرفوا أنّ النبيّ المبشر به سيكون من ولد إسماعيل، لأخفوا تلك البشارة، أو قاموا بمحوها. وقد أثبتت الأيام أنّ هذا النبي المبشَّر به هو محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

ونلاحظ هنا في قوله: (من وسط إخوتهم) أي ليس من بني إسرائيل، وإنما هو من إخوتهم العرب؛ لأن اليهود من ذرية إسحق، والعرب من ذرية أخيه إسماعيل.

وأما قوله: (أجعل كلامي في فمه) أي يكون أمياً، يقرأ كتاب الله بفمه لا من مصحف، بخلاف الألواح التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام: فقد كان يقرأ منها.

---

(١) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص١١٥، الطبعة الخامسة، ١٤٠٧-١٩٨٧، دار القلم/دمشق.

ويشير هذا النص بوضوح إلى النبي محمد ﷺ. ويؤيده ما وَرَد في سفر أعمال الرسل من العهد الجديد ٧:٣٧:

(هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل: نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون).

ومن البشارات التي لا تزال موجودة في التوراة ما جاء في سفر التثنية ٣٣:٢:

(جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران، ومعه ألوف الأطهار، في يمينه نار شريعة لهم).

ولا ريب أن مجيئه من سيناء يشير إلى إعطاء التوراة لسيدنا موسى ﵇، وإشراقَه من ساعير، يشير إلى إعطاء الإنجيل للسيد المسيح ﵇، واستعلاءه من جبل فاران يشير إلى إعطاء القرآن لمحمد ﷺ؛ لأن فاران منطقة قرب مكة، سكنها إسماعيل جدُّ الرسول محمد ﷺ.

وأما فيما ورد في العهد الجديد، فنقرأ في (إنجيل متى) الذي لا يزال القوم يتداولونه إلى يومنا هذا ٢١:٤٣:

(لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزعُ منكم، ويُعطى لأمة تعمل أثماره).

يتضح من هذا النص أن ملكوت الله يُنزع من (بني إسرائيل)، ويعطى لأمة أُخرى في ذرية إسماعيل: كما حصل بنبوة محمد ﷺ.

ومن البشارات ما ورد في الإنجيل على لسان سيدنا عيسى ﵇:

((يأتي من بعدي الفارقليط)).

وكلمة الفارقليط كلمة يونانية، ومعناها: الحمد. فالكلمة إذن مشتقة من (أحمد). لكنهم أبوا أن يترجموها في الترجمة العربية، بل أبقوا الكلمة كما هي (الفارقليط)؛ لتظل غير مفهومة للقارئ العربي، وكي لا يُعرف من الذي سيأتي بعد (المسيح) عليه السلام. وقد مضت القرون بعد القرون، ولم يأت بعد (المسيح) عليه السلام غير محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وهناك بشارات كثيرة أخرى في (التوراة) و (الإنجيل) في بعثة سيدنا محمد ﷺ. ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضاً منها.

المعجزات:

أكرَمَ اللهُ أنبياءه ورسله بخوارق العادات التي لا تعتمد على الأسباب المعتادة. ولا يستطيع البشر أن يأتي بمثلها -مهما تقدَّم في العلم والمعرفة- ليقيم بها الدليل على صدق نبوته ورسالته. كأنَّ الرسول يقول للناس: لقد أرسلني الله إليكم، وأعطاني معجزة أو معجزات؛ تصديقاً لي فيما أقول؛ لكيلا يتهمني أحد بالافتراء على الله. ومن تلك المعجزات: معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد ألقوه في النار العظيمة التي أوقدوها؛ فجعلها الله بَرْداً وسلاماً عليه، وخرج منها سالماً لم يُصَبْ بأذى. وكانت معجزات سيدنا موسى عليه السلام كثيرة: فقد ألقى عصاه، فانقلبت إلى حية تسعى، وضربَ بها البحر؛ فانفلق له (من البحر) اثنا عشر طريقاً يبساً ... وكانت معجزات سيدنا عيسى عليه السلام كثيرة -أيضاً-: فقد أحيا الموتى بأذن الله، وأبرأ الأكمَه

والأبرص بأذن الله، وكان يخبر الناس بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم ...

وأما معجزات رسول ﷺ فهي كثيرة، منها: معجزة انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، ونبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام ببركته ... وقد ورد ذلك بأحاديث صحيحة كثيرة. أما معجزته الخالدة الباقية، فهي القرآن الكريم.

إعجاز القرآن:

المعجزة: أمر خارق لما اعتاده البشر، يتحدى به الناس أن يأتوا بمثله لكنهم لا يستطيعون، يأتي بها النبي المرسل من الله تصديقاً لدعواه.

ولكن كيف كانت معجزات الأنبياء قبل بعثة النبي محمد ﷺ؟

كانت المعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبيائه ورسله من جنس ما برعت به أقوامهم؛ لتكون الحجة ملزمة لهم. فحين أرسل الله موسى عليه السلام إلى قومه جعل معجزته من جنس ما برع به القوم آنذاك؛ إذ كان السحر منتشراً: فكانت عصاه تتفجر منها المعجزات: ألقاها أمام السحرة فإذا هي حية تسعى، وصارت تلقف ما يأفكه السحرة، وضرب بها الصخرة، فانفجرت منها اثنتا عشرة عيناً. وكانت معجزة سيدنا عيسى من جنس ما برع به القوم آنذاك أيضاً: فأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله.

وحين أرسل الله محمداً ﷺ كانت الفصاحة والبلاغة العربية قد وصلت أوجَها، فجعل الله معجزته القرآنَ الكريم، وتحدى العــرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحدَّاهم أن يأتوا بعشر سُوَرٍ من مثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا أيضاً، ثم قال رب العالمين:

﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَــأْتُوا بِمِثْــلِ هَــذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

وظل هذا التحدي قائماً، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وفي هذا القرآن سر عجيب: وهو أنه (لا يَخْلَقُ علــى كثــرة الردِّ): فلا يسأمُ قارئُه وسامعه من تلاوته وسماعه، على العكس مــن قراءة وسماع غيره من الكتب. وننظر في واقع الإنــسان، فنــراه إذا سمع خطبة فصيحة أو قصيدة بليغة يعجب بهــا أول الأمــر، فــإذا ازدادت قراءته لها قلَّ إعجابُه بها شيئاً فشيئاً حتى تصيرَ باليــةً مــن كثرة تردادها. وليس كذلك القرآن الكريم؛ فإن المسلم كلما أزداد تلاوة له أزداد حباً له وإعجاباً به. فهو يقرأ سورة الفاتحة في كل يوم وليلة في الصلاة سبع عشرة مرة إذا صلى الفريضة وحدها. ويختم قــراءة القرآن مرات ومرات: فما ينتهي من تلاوته حتى يعود إلــى تلاوتــه مرة أخرى. ومع ذلك فلا يحسُّ القارئ للفاتحة وللقرآن بــشيء مــن

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

السآمة وصدق رسول الله ﷺ حين قال عن كثـرة تـلاوة القـرآن: (...ولا يخلق على كثرة الرد...).

ولقد اختلف العلماء في سبب الإعجاز علـى مـذاهب، ومـن أهمها:

١- إخباره بالغيب: ذكر القرآن الكريم كثيراً من الحوادث التي ستقع لمجتمعات بشرية. وقد تحقق ما أخبر به. مـن ذلـك إخبـاره بهزيمة الروم -وهم أهل كتاب في فلسطين- على أيدي الفرس -وهم عبّاد أوثان- ثم انتصار الروم عليهم بعد ذلك في بضع سـنين. وقـد فرح المشركون بذلك، وتوعدوا المسلمين أن يـصيبهم مـا أصـاب إخوانهم من أهل الكتاب، وساء المسلمين ذلك. وقد سجل القرآن هـذه الحادثة فقال:

﴿الم۝غُلِبَتْ الرُّومُ۝فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْـدِ غَلَـبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ۝فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ۝بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ۝وَعْـدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

وهذه الآيات الكريمة جاءت بصيغة لا تقبل التأويل **﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾**. وقـد تـصوّر بعض من الناس أن الرسول ﷺ وضع نفسه في امتحـان عـسير؛ إذ حدد الموعد بأقل من عشر سنين؛ إذ البضع في اللغة ما بين الـثلاث إلى التسع. وقد تحقق الآمر كما أخبر به القرآن الكريم. وتـدل هـذه

(١) سورة الروم، الآيات ١-٦.

الآيات دلالة واضحة: على أن هذا القرآن هو من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ.

ومن إخبار القرآن بالغيب: دخول المسلمين المسجد الحرام وقد تحقق، وعصمةُ الله رسوله من القتل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ﴾[1]، وقد تحقق على كثرة من حاولوا قتله صلوات الله وسلامه عليه.

٢- الإخبار عن الماضي بالأنباء الصادقة: كان رسول الله ﷺ أمياً لم يطلع على أقاصيص الأولين وكتبهم وسيرهم: فتحدث القرآن عن آدم وكيف خلق، وعن نوح وعناد قومه، وما كان بينه وبين ابنه الكافر، وعن الطوفان الذي حلّ بالناس. وتحدث عن إبراهيم ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده وإلى تحطيمه الأصنام، ثم إلقائه في النار. وتحدث عن سليمان وعلمه بمنطق الطير، وعن يوسف وقصته مع أبيه وقومه وكيد إخوته له، وقصة سيدنا موسى التي وردت في القرآن في ثلاثين موضعاً، وقصة سيدنا عيسى من مولده إلى أن رفعه الله إليه ... فعلم من هذا أن ما ورد من هذه الأخبار كان عن طريق الوحي: وهو جانب من جوانب إعجاز القرآن قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ...﴾[2].

٣- النظم والأسلوب والبلاغة: وصل القرآن الكريم قمة البلاغة في أسلوبه، وبديع نظمه، وتناسق كلماته، ووجوه إيجازه: فألفاظه فصيحة، وجُمَلُه وتراكيبه قد أُحكِمتْ إحكاماً لا يستطيعه أحد من

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.
(٢) سورة هود، الآية ٤٩.

العالمين، فوق ما نجده من حسن انتقاء الألفاظ، ودقة الاختيار، وفواصل القرآن، وارتباط الفاصلة بالنص القرآني ...

والقرآن الحكيم يعرض الحادثة الواحدة بطرق متنوعة، وفي كل طريقة معنىً غير المعنى في الحادثة الأخرى. فلا يستطيع المتأمل في القرآن الكريم أن يجد نصين يتكرران ما لم يزد أحدهما معنىً أكثر من المعنى الذي تضمنه النص الآخر، على كثرة النصوص المتشابهة التي يسوقها القرآن الحكيم: ذلك أن السياق القرآني يعرضها كل مرة عرضاً جديداً، مشيراً إلى تفصيلات لا نجدها في العرض الآخر. وهذا ما نجده في القرآن الكريم بكثرة كاثرة: كالآيات التي تتحدث في يوم القيامة، وصور النعيم والعذاب في الدار الآخرة، والمشاهد الكونية الكثيرة، وقصص الأنبياء ... وقد يكون التنويع في الآيات الكريمة بكلمة واحدة، أو بزيادة حرف واحد. وكمثال على هذا ما جاء في قول الله تعالى:

﴿... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

وقوله:

﴿... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[2].

وهاتان الآيتان تتحدثان في موضوع واحد يتعلق بما أنعمه الله على بني إسرائيل. أما الآية الأولى، فتتحدث بما منّه الله على بني

---

(١) سورة البقرة، الآية ٤٩.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ٦.

إسرائيل؛ إذ نجاهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب: يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وأما الآية الثانية، فتتحدث في الموضوع نفسه، لكنها أضافت معنىً آخر بزيادة الواو في قوله ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾، فما المعنى الذي أضافته؟

أما آية سورة البقرة، فقد حددت حقيقة العذاب: وهو تذبيح الأبناء واستحياء النساء، وأما آية سورة إبراهيم، فأشارت إلى أن العذاب كان أنواعاً كثيرة لم يقتصر على تذبيح الأبناء واستحياء النساء، بل هو -فوق ذلك- أنواع أخرى من العذاب. وهكذا اختلف معنى الآيتين حين زيد (حرف الواو) في سورة إبراهيم؛ فلا تكون إحداهما مكررة.

وهكذا يعرض القرآن الحكيم الموضوع كلّ مرة بشكل يُشبه الشكل الذي سبقه، لكنه يضيف معنىً آخر. وهذا -بلا ريب- لون من ألوان إعجاز القرآن؛ فسبحان من هذا كلامه!.

وننظر في القصص القرآني، فنجد صور عرضها متعددة، قد اختلفت في طرق سردها؛ إذ القرآن يسوق القصة كل مرة في جوٍ يختلف عن جو السياق الآخر، فتبدو كأنها قصة جديدة، مع أنّ الأشخاص هم الأشخاص، والحوادث هي الحوادث نفسها. ولكن الذي تغير هو سياق الآية الذي يدخل إلى النفس البشرية دخولاً لطيفاً؛ فيقع التأثر بها.

٤- العلوم الكونية: أشار القرآن الكريم إلى حقائق علمية سيكتشفها الناس فيما بعد فقال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

وحرف السين في قوله تعالى (سنريهم ...) يفيد الاستقبال. أي أن الله ﷻ سيُري الناسَ دلائل واضحات في هذا الكون وفي النفس الإنسانية، على أن هذا القرآن منزل من عند الله، وأن كل ما جاء به حق لا ريب فيه. وهكذا الأمر في قوله:

﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾[٢].

وقوله:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[٣].

ويشاء الله أن يجعل غير المسلمين هم الذين يكتشفون كثيراً من الحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، في القرنين التاسع عشر والعشرين، بعد أن تقدمت المخترعات، وضَرَبَ التقدم الحضاري بسهم وافر، وأكتشف الإنسان أجهزة حديثة أوصلته إلى اكتشاف تلك الحقائق العلمية. فمَنْ الذي أعلمَ النبيَّ محمداً ﷺ بهذه الآيات التي أشارت إلى حقائق علمية ما كان يعرفها أحد حين نزول القرآن الكريم لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟!

إن هذا الأمر هو الذي جعل بعضاً من علمائنا يقول: إن ما أشار إليه القرآن من حقائق علمية لون من ألوان إعجاز القرآن وحجتهم: أن القرآن لم يكن خاصاً بالعرب حتى يدركوا بلاغته

---

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣.
(٢) سورة النمل، الآية ٩٣.
(٣) سورة ص، الآية ٨٨.

وفصاحته وبيانه، وإنما هو كتاب أنزله الله إلى الناس كافة: عربهم وعجمهم، فيستطيع كل واحد منهم إدراك شيء من إعجاز القرآن في النواحي العلمية. ولقد وضع هؤلاء العلماء شروطاً في التفسير العلمي فقالوا: إن الآيات العلمية في القرآن الكريم لا تفسر إلا بالحقائق العلمية فلا تفسر بالنظريات، وإن التفسير العلمي يجب أن يكون وفق أساليب اللغة العربية، كما يجب أن لا يعدلَ المفسرُ عن الحقيقة إلى المجاز إلاَّ إذا تعذر حمل الآية على الحقيقة ... وقد أشار القرآن إلى حقائق علمية كثيرة، منها: ما أخبر به من أن الإنسان يضيق صدره إذا ارتفع في أعالي الجو قال تعالى:

﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[1].

لقد كان الناس يظنون إلى عهد ليس بالبعيد: أنَّ الإنسانَ إذا ارتفع في أعالي الجو فإنه يتنفس الهواء العليل بسهولة. فلما صنع الإنسان الطائرة الحديثة وطار بها في أعالي الجو، وجد معضلةً تقف أمامه: وهي صعوبة التنفس، فيضيق صدره لقلة الأكسجين. وكلما ازداد صعوداً ازدادت صعوبةُ التنفس أكثر. فمن الذي أعلمَ محمداً ﷺ بهذه الحقيقة العلمية لو لم يكن القرآن منزّلاً من عند الله؟!!

ومن أمثلة الإعجاز القرآني قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ونقف هنا وقفة قصيرة أمام قوله تعالى: **﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾**. فلو قال القرآن: أتاها أمْرنا ليلاً لحق للناس أن يقولوا في هذا العصر: إن هذا القرآن من عند محمد ﷺ. وهكذا الأمر لو قال القرآن: أتاها أمرنا نهاراً؛ لأن قيام الساعة سيكون في لحظة واحدة، ونحن نعلم أن الأرض التي تكون عندنا نهاراً تكون عند غيرنا ليلاً. لذلك كان القرآن الحكيم دقيقاً كل الدقة حين قال: **﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾**: فتكون ليلاً عند القوم الذين عندهم ليل، ونهاراً عند الذين يكون عندهم نهار؛ لذلك قال الحكيم الخبير في نهاية الآية: **﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.

ومن الأمثلة العلمية على إعجاز القرآن قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ مِهَادًا۝وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[2].

الاستفهام في الآية استفهام تقريري، والآية تحمل حقيقة علمية لم تعرف إلاّ قبل فترة وجيزة من الزمن بالوسائل العلمية الحديثة التي لم يعرفها أحد قبل النصف الأخير من القرن العشرين. فقد تمكن العلماء من اختراع أجهزة تصوّر باطن الأرض بتقنيات دقيقة جداً؛ فتبين من تلك الصور أن الجبال مغروسة كالأوتاد في باطن الأرض، وأن ذلك الجزء المغروس مدبب كالوتد ليكون الجبل ثابتاً مكانه.

---

(١) سورة يونس، الآية ٢٤.
(٢) سورة النبأ، الآيات ٦-٧.

ولولا ذلك لما كان للجبل من ثبات. وهذه الحقيقة العلمية لم يعرفها العرب ولا غير العرب حين نزول القرآن، ولم تكتشف إلاّ بعد منتصف القرن العشرين.

وهناك حقيقة علمية أخرى تتعلق بالجبال، أشار إليها القرآن الكريم وهي قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾[١].

ويبدو من هذه الآية أن الجبال بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض تقوم بحفظ توازن الأرض لئلا تميد بالناس. ولولا ذلك، لوقعت الزلازل الكثيرة هنا وهناك، ولما استطاع الإنسان أن يعيش على الأرض العيش الاعتيادي.

ومما يدل على إعجاز القرآن قول الله تعالى:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢].

نزلت هذه الآية على النبي الأمي محمد ﷺ، ولم يكن أحد من العرب ولا غير العرب يعرف عن هذه الظاهرة أي شيء كان؛ ذلك أن مياه الأنهار العذبة تصب في البحار والمحيطات المالحة. لكن عذوبة تلك المياه تظل كما هي لا تمتزج بملوحة البحار والمحيطات مسافة طويلة، على الرغم من كثرة المياه المالحة وشدة ملوحتها. إنهما يتجاوران ويلتقيان، لكنهما لا يمتزجان، ويظل كل منهما محتفظاً بخصائصه ومكوناته الكيماوية بسبب ذلك (البرزخ) الذي هو الحاجز

---

(١) سورة النحل، الآية ١٥.
(٢) سورة الرحمن، الآيات ١٩-٢١.

الذي يفصل بينهما، فلا يطغى أحدهما على الآخر بالممازجة والاختلاط. وقد اكتشفت بحيرات تحتوي على الماء العذب في باطن المحيطات مع أن الملوحة تحيط بالمياه العذبة من كل جانب.

والأعجب من ذلك أن المياه المالحة نفسها لا يختلط بعضها بالبعض الآخر إذا كانت نسبة الملوحة مختلفة بين الماءين المالحين، فيظل أحد الماءين طافياً فوق الماء الآخر لا يمتزج به. وهذه الظاهرة نراها واضحة كل الوضوح في مياه البحر الأحمر التي لا تمتزج بمياه المحيط الهندي عند (باب المندب) بسبب ذلك (البرزخ) الذي يفصل بين البحر والمحيط.

فمن أين لمحمد ﷺ هذا العلم لو لم يكن القرآن تنزيلاً من رب العالمين؟!

وهكذا الأمر في الآيات القرآنية التي تتحدث عن الإحساس بالألم وإنه يتركز في الجلد، وتسوية البنان، وحركة الأرض والجبال، وأطوار خلق الإنسان ... بل الآيات العلمية في القرآن الكريم وصلت إلى المئات وجاءت علوم القرن العشرين مؤيِّدةً لكل ما ورد في القرآن.

وإذا كان القرآن الحكيم قد أشار إلى حقائق علمية كثيرة، فإن غيره من الكتب المنزلة ليس فيها ما يشبه تلك الإشارات العلمية، ذلك أن الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام في الزمن جاءت لأقوام معينين ولم تجئ عامة إلى كل جيل من الأجيال. وكل رسالة من تلك الرسالات ينتهي العمل بها بإرسال رسول جديد. أما الشريعة

الإسلامية، فقد أرادها الله أن تكون خاتمة الشرائع، وللبشر -كل البشر- إلى أن تقوم الساعة؛ لذلك جعل الله في هذا الدين كل ما يحتاجه الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فهو ليس لجيل دون جيل، بل هو للأجيال كلها، يهديهم إلى طريق الخير والرشاد.

وأخيراً: فإن إعجاز القرآن لا ينحصر في ناحية واحدة أو ناحيتين من هذا أو ذاك، بل هو معجز بكل ما فيه: بفصاحته، وبلاغته، وبيانه، وإخباره بالغيب، وإخباره عن الماضي بالأنباء الصادقة، وباشتماله على العلوم الكونية، وبإعجازه التشريعي ...

الموت

الموت ضد الحياة: وهو مفارقة الروح الجسد، وانتقال الإنسان من دار إلى دار. والذي بيده الموت والحياة هو الله ﷻ وحده، قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[1].

والله ﷻ وكل قبض الأنفس إلى ملك من ملائكته يسمى ملك الموت، قال تعالى:

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[2].

ولِمَلَكِ الموت أعوان من الملائكة يعالجون نزع الأنفس من أجسادها، قال تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[3].

بقاء الروح وإدراكها بعد الموت:

تبقى الروح منعمة أو معذبة وهي تدرك وتسمع. ودليل نعيمها قوله تعالى:

---

(١) سورة الزمر، الآية ٤٢.
(٢) سورة السجدة، الآية ١١.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٦١.

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ۞فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَـمْ يَلْحَقُـوا بِهِـمْ مِـنْ خَلْفِهِـمْ أَلاَّ خَـوْفٌ عَلَـيْهِمْ وَلا هُـمْ يَحْزَنُونَ۞يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْـرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وأما دليل عذابها وشقائها فقوله تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَـوْمَ تَقُـومُ الـسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[٢].

وأما الدليل من الأحاديث، فأن المشركين لمّا قُتلوا يوم بـدر، ناداهم رسول الله ﷺ بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بنَ فلان، ويـا فلان بنَ فلان، أيسـركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنّا قد وجدنا مـا وعدَنا ربُّنا حقاً، فهل وجدتم ما وعدَ ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يـا رسول الله، ما تُكلِّمُ من أجسـادٍ لا أرواحَ لها؟ فقال رسـول الله ﷺ: [والذي نفس محمدٍ بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم][٣].

وقال ﷺ:

[إن الميت يَعرفُ من يغسله، ومن يحمله، ومـن يدليـه فـي قبره][٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٦٩-١٧١.
(٢) سورة غافر، الآية ٤٦.
(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي (باب: قتل أبي جهـل). البخـاري مـع الفـتح ٣٠٠/٧ ورقم الحديث ٣٩٧٦.
(٤) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وأنظر تخريج الحديث في كتاب تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ٢٦٢٥/٦ ورقم الحديث ٤٠٥٢.

وكلما كان المسلم على جانب كبير من الإيمان والتقوى صار مَلَك الموت رفيقاً بقبض نفسه، فهو يستلها كما تستل الشعرة من العجين. وعلى العكس من ذلك فإن الكافر والمنافق يُعَذَّبُ حين تُخرجُ نفسه، فعن البراء بن عازب ﷺ قال:

«خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمّا يُلحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين، أو ثلاثاً ثم قال:

[إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملكُ الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفسُ الطيبة، أُخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرجُ تسيلُ كما تسيل القَطرةُ من فيِّ السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيبِ نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون لهُ فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله ﷻ اكتبوا كتاب عبدي في عليين، فيكتب كتابه في عليين،

ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارة أخرى. قال: وتعاد روحه في جسده ... وان العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يَدَعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الخبيث، فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾** فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى ثم يقال : أعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه (من السماء) طرحاً (حتى تقع في جسده) ثم قرأ: **﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنْ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾**، فتعاد روحه في جسده...]»[1]

(١) رواه أبو داوود ٢/٢٨١ والحاكم ١/٣٧-٤٠ والطيالسي رقم ٧٥٣ والإمام أحمد والسياق له ...

الحياة البرزخية[1]

هناك حياة خاصة يعايشها الإنسان في القبر بعد سؤال الملكين له: من ربك؟ ما دينك؟ ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمد ﷺ؟

وفي ضوء إيمانه بالله واستقامته يكون قبره إما روضةً من رياضِ الجنة أو حفرة من حُفَر النار. يقول الرسول محمد ﷺ:

«إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل -يعني محمداً ﷺ- ؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: أنظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً. وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريتَ ولا تليت، ويضربُ بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين»[2].

ويدل على عذاب القبر آيات كريمة وأحاديث شريفة، منها قول الله تعالى في آل فرعون:

﴿... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ۝النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[3].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبرين فقال:

---

(١) حياة البرزخ هي الحياة التي تفصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي حياة الانتظار ليوم القيامة.
(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري. وأنظر: صحيح مسلم ٤/٢٢٠٠-٢٢٠١.
(٣) سورة غافر، الآية ٤٦.

«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول، وأما الآخر، فكان يمشي بالنميمة ...»[1].

وقال صلوات الله وسلامه عليه:

«لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»[2].

وكان من دعاء رسول الله ﷺ:

«اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال»[3].

مثل عذاب القبر ونعيمه:

وما مثل عذاب القبر ونعيمه إلا كمثل النائم، يرى في عالم الرؤيا أنه يعذب، أو يسقط من شاهق جبل، فيصيبه ما يصيبه إذ ذاك من العذاب العظيم، ويرى إنسان آخر في عالم الرؤيا أنه يعيش في حديقة غناء، ووسائل السرور والراحة كلها متوافرة له. إن هذا العذاب أو النعيم الذي يشعر به الإنسان في عالم الرؤيا إنما يقع على الروح ولا ينكره أحد وهكذا الأمر بالنسبة لعذاب القبر. والله أعلم.

الموت نقلة:

حين تفارق الروح الجسد، تنطلق في هذا الكون الواسع الرحيب سابحة في مُلْك الله الذي لا تحده حدود، ولا تقيّده قيود. ذلك أن الروح لدى الإنسان الحيّ، تظل محبوسة في القفص الذي هو جسد

---

(١) رواه البخاري في باب الجنائز (باب: الجريدة على القبر). البخاري مع الفتح ٢٢٤/٣.
(٢) رواه الإمام أحمد، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها (باب عرض مقعد الميت من الجنة) رقم ٢٨٦٧.
(٣) رواه مسلم في كتاب المساجد (باب: ما يستعاذ منه في الصلاة) رقم ٥٨٨.

الإنسان. وتستطيع الروح -بعد مفارقتها الجسد- أنْ تتصل بالأرواح الأخرى: تأنس بها وتناجيها، وتشعر بالألم أو النعيم. والموت في حقيقته انتقال من دار إلى دار، من المنزل الفاني في الدنيا إلى المنزل الآخر في (البرزخ). وقد رُوِيَ أن أحد الرجال المعروفين بالصلاح، حين ظنّ أن دنوّ أجله قريب، قام فاغتسل، وتطيب، وصلى ركعتين. ودخل عليه أهله بعد ساعات قليلة، فوجدوه قد مات وهو مستقبل القبلة، وعند رأسه ورقة كتب فيها هذه الأبيات:

قُلْ لإخوانِ رأوْني ميّتاً
فبَكَوْني ورَثَوني حَزَنا

أتظنونَ بأني مَيْتُكُم؟
ليس هذا الميتُ والله أنا

أنا في الصور وهذا جسدي
كان ثوبي وقميصي زمنا

أنا عصفورٌ وهذا قفصي
طرتُ عنهُ وبقى مرتهَنا

أحْمَدُ اللهَ الذي خلَّصني
وبنى لي في المعالي مَسْكنا

لا تظنوا الموتَ موتاً إنه
ليس إلا نقلة من ههنا

الإيمان باليوم الآخر

الحياة البشرية تنقسم إلى قسمين: دار عمل قصيرة، ودار جزاء خالدة. أما هذه الحياة الدنيا، فهي دار عمل، وأما الآخرة فهي دار الجزاء. وقد قضى الله منذ الأزل أن يثيب من عمل صالحاً، ويعاقب من عمل سوءاً. إنه عدل الله. ومن مقتضاه عدم التسوية بين المحسن والمسيء. وإذا كانت الدنيا ليس فيها ثواب كامل لمحسن، ولا عقاب كامل لمسيء، فقد أعدّ الله يوماً لمكافأة المحسنين وعقاب الكافرين ... أنه يوم القيامة، لكنَّ ناساً منذ نزول القرآن على قلب الرسول ﷺ كذبوا بوجود اليوم الآخر، فتولى القرآن مناقشتهم مناقشة عقلية. قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ۝ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۝وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[١].

وقال:

---

(١) سورة الحج، الآيات ٥-٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ۞وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ۞قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ۞الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ۞أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقال:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ۞بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ۞أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ۞قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ۞بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ۞أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ۞تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ۞وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ۞وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ۞رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[2].

الساعة:

حدد الله تعالى زمناً لإنهاء نظام الكون. وعبّرَ القرآن عن هذه النهاية بلفظ (الساعة): وهي القيامة. وسميت ساعة، لأنها تحدث في وقت قصير من الزمن، فالساعة: هي الوقت الذي يموت فيه

---

(١) سورة يس، الآيات ٧٧-٨١.
(٢) سورة ق، الآيات ١-١١.

الأحياء في هذا العالم ويضطرب نظامه. والإيمان بوقوعها واجب، وإنكارها كفر وتكذيب لصريح القرآن. وقد أخفى الله موعدها، فلا يعلم ذلك أحد إلا الله، وهي تأتي بغتة، وهناك علامات تحدث قبل وقوعها.

أشراط الساعة:

قبل أن تقوم الساعة تقع مجموعة من الأحداث.وقد أشار القرآن الكريم إلى قسم منها، وأشار رسول الله ﷺ إلى قسم آخر. وهذه الأشراط يُعبّرُ عنها بعلامات الساعة -أيضاً- وقد قسّمَها العلماء إلى قسمين:

العلامات الصغرى والعلامات الكبرى.

أ- **العلامات الصغرى:**

١- بعثة النبي ﷺ وخَتْمُ النبوة والرسالة به.

٢- تضييعُ الأمانة.

٣- فشو الزنا، وشرب الخمر، والمنكرات، وكثرة النساء وقلة الرجال.

٤- حدوث الفتن والمصائب في المسلمين، ووجودُ المال الكثير في أيديهم مع عدم الشكر، وكثرة الموت بالزلازل والأمراض، وعقوق الأمهات، وارتفاع الأصوات في المساجد، وزعامة الأراذل من الناس.

٥- قلة البركة في الأوقات وقلة العلم الإسلامي الذي يدعو إلى العمل، والبخل بالخير، وكثرة القتل.

٦- أن يتحكم في الناس من لا يملك تربيةً عاليـــة ولا أخلاقـــاً سامية، ويصبح أهل البداوة ورعاة الغنم من أهل الثـــروات الكبيـــرة والترف.

ب- العلامات الكبرى:

١- خروج المسيح الدجال.

٢- نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض، بعد أن بقي فترة طويلة في ملكوت الله.

٣- خروج الدابة ذات القوائم التي تُكَلّمُ الناس.

٤- خروج دخان كثيف يملأ ما بين السماء والأرض.

٥- طلوع الشمس من المغرب.

٦- خروج يأجوج ومأجوج.

٧- خسف بالمشرق.

٨- خسف بالمغرب.

٩- خسف بجزيرة العرب.

١٠- نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى أرض المحشر.

الصور:

وهو كهيئة البوق، وقد وضعَ إسرافيلُ فاه عليه ينتظر متـــى يُؤمَر فيَنفخ فيه. قال عليه الصلاة والسلام:

«كيف أنعمُ وقد التقمَ صاحب القَرنِ القَرْنَ وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ فيَنْفخ »[1].

وينفخ في الصور نفختان: الأولى نفخة الفزع والصعق، فيموت كل الأحياء إلاّ مَنْ شاء الله، وأما النفخة الثانية، فهي نفخة البعث والنشور بعد الموت. ودليل ذلك قول الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[2].

وما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما بين النفختين أربعون ...»

قالوا يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟ قال: أَبَيْت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أَبَيْت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت[3].

وقد ذُكِرَ النفخ في الصور في عشرة مواضع في القرآن الكريم. ونحن لا ندري حقيقته، ولا كيف يكون النفخ فيه، لأن ذلك من الغيب الذي ما أطلعنا الله عليه، والخوض في تفاصيله والنفخ فيه هو رجم بالغيب من غير دليل. ونحن نؤمن به لوروده في القرآن الكريم، والصحيح من الحديث النبوي الشريف.

---

(١) رواه الترمذي في أبواب التفسير (من سورة الزمر) رقم ٣٢٤٣.
(٢) سورة الزمر، الآية ٦٨.
(٣) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة (باب: ما بين النفختين). ومعنى (أبيت): أي لا أستطيع أن أجزم: هل هي أربعون يوماً، أو أربعون شهراً، أو أربعون سنة.

البعث:

البعث: هو إحياء الموتى بعد جمع أجزائهم وإخـراجهم مـن قبورهم، بعد أن بَليَ كلُّ شيء في الإنسان إلا عظماً واحداً: هو عَجْبُ الذنب، إذ منه يُعاد جسم الإنسان ... يعيد الله النـاس، ليـتم الفـصل بينهم: فيثيب المحسن ويعذب المسيء. قال الرسول ﷺ:

«كل ابن آدم تأكله الأرض إلاّ عَجْبُ الذنب، منه خُلق، وفيـه يركب»(١).

وهكذا يُنزِل الله مطراً مـن السماء، فينبـت عَجـبُ الـذنب، ويخرج إنساناً سوياً. وقد ذكر القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عـن البعث، وأحاديث شريفة، قال الله تعالى:

﴿وَأَقسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُـوتُ بَلَـى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ۞لِيُبَـيِّنَ لَهُـمُ الَّـذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾(٢).

وقال الله تعالى في الحديث القدسي:

«كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشَتَمَني ولم يكن له ذلـك: فأما تكذيبُه إيّاي فقوله: لن يُعيدني كما بدأني، وليس أوّل الخلق بأهونَ عليَّ من إعادته، وأما شتمه إيّاي، فقوله: اتخَذَ الله ولداً، وأنا الأحـدُ الصمد، لم ألِدْ ولم أولد، ولم يكن لي كُفُواً أحد»(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والنسائي ومالك في الموطأ.
(٢) سورة النحل، الآيات ٣٨-٣٩.
(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير من سورة الإخلاص، والنسائي في سـننه (بـاب أرواح المؤمنين).

مَثَلُ إعادة خلق الإنسان من جديد:

وما مَثَلُ إعادة خَلْقِ الإنسان من جديد إلاّ كمثل النباتات التي تتساقط، فلا يبقى منها شيء إلاّ البذرة التي كانت مدفونة تحت التراب، فإذا نَزَلَ المطر عاد النبات مرة أخرى. قال الله تعالى:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1].

وقال ﷺ لمن سأله: كيف يُحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟

قال: «أما مَرَرْتَ بوادي أهلِكَ مَحْلاً؟ قال: بلى. قال: أما مررتَ به يهتز خضراً؟ قال: قلت: بلى ... قال: فكذلك يُحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقِه»[2].

الحشر:

الحشر: هو جمع الناس في الحياة الآخرة لموقف الحساب. فيجمع الله الناس -كلهم- ويسوقهم إلى أرض المحشر. ويكون الحشر للأنس والجن لأنهم مكلفون، ليجازيهم ربهم على ما قدّموا، ويكون للملائكة -أيضاً- ليقوموا بأعمالهم التي أناطها الله بهم. قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا۝وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾[3].

---

(١) سورة الروم ، الآية ١٩.
(٢) رواه الإمام أحمد في مسند المدنيين برقم ١٥٦٠٣.
(٣) سورة مريم ، الآيات ٨٥-٨٦.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾[1].

وقال النبي ﷺ:

«يُحْشَرُ الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلاً. قالت عائشة: قلتُ يا رسول الله، النساء والرجال جميعاً ينظرُ بعضُهم إلى بعض؟! قال: يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»[2].

العَرض:

وقبل الحساب يكون العرض على الله وهو نوعان:

النوع الأول: العرض العام. فتعرض الخلائق كلها على الله، لا تخفى عليه منهم خافية.

النوع الثاني: العرض الخاص. ويتمثل في عرض معاصي المؤمنين عليهم، وتقريرهم بها، وسترهم عليها، ومغفرتها لهم. قال تعالى في العرض العام:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾[3].

وقال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[4].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٩٧.
(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: كيف الحشر)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة).
(٣) سورة الحاقة ، الآية ١٨.
(٤) سورة الزلزلة ، الآيات ٦-٨.

وقال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلاّ سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان. فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلاّ ما قدّم، وينظر أشأمَ منه فلا يرى إلاّ ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلاّ النارَ تلقاءَ وجههِ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيّبة»[1].

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها حديثاً عن النبي ﷺ يفرّق به بين العرض والحساب فيقول:

«ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. فقلت: جعلَني الله فداءك أليس يقول الله ﷻ **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾**؟ قال: ذاك العرض يعرضون، ومن نوقش الحساب هَلَكَ»[2].

الحساب:

يجمع الله الناس في صعيد واحد، ويحاسب كل فرد منهم على ما عمل، بعد أن أحصت الملائكة ما أقدم عليه كل إنسان من عقيدة وأعمال. والحساب منه اليسير ومنه العسير. وأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله الصلاة، وأول ما يقضى بين الخلائق من حقوق العباد في الدماء. قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم)، رقم ٧٥١٢، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم (باب: من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه) وأبواب أخرى، ومسلم في كتاب الجنة (باب: إثبات الحساب).

«أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم: الصلاة. يقول ربُّنا ﷻ لملائكته -وهو أعلم- انظروا في صلاة عبدي: أتمّها أم نقصها؟ فإن كانت تامةً كُتِبَتْ له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم»[1].

وقال:

«أول ما يُقْضى بين الناس في الدماء»[2].

والذي يتولى الحساب في هذه المحكمة هو الله رب العالمين بلا وساطة أحد. ويحاسب الله كل أمة وفْقَ شريعتها بحضور نبيها، ويرحم الله المؤمن في هذا الموقف الصعب، فلا يناقشه الحساب.

والحكمة من الحساب: هو إظهار فضل الأتقياء الصالحين، وتبيان فضائح الكفرة والعصاة على رؤوس الأشهاد. وهذا العذاب الذي ينال الكفار والعصاة هو جزاء ما اعتقدوه من عقيدة فاسدة، وما أقدموا عليه من أعمال سيئة. ومن فضل الله وكرمه أن ضاعف الثواب أضعافاً كثيرة، وجعل العقاب جزاءاً وفاقاً.

نشر صحائف الأعمال:

ويأخذ كل إنسان كتاب أعماله، وفيه كل صغير وكبير من أعماله وأقواله، سواء كان ذلك في النور أو في الظلمة، وحده أو مع ناس آخرين. قال تعالى مشيراً إلى كتاب الأعمال:

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داوود والنسائي والحاكم. أنظر: الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير للسيوطي ٤٦٨/١.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب: القصاص يوم القيامة) رقم ٦٥٣٣، ومسلم في كتاب القسامة (باب: المجازاة بالدماء في الآخرة) رقم ١٦٧٨.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا۝اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[2].

ومن الناس من يأخذ كتابه بيمينه فيفرح بذلك أشدّ الفرح:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ۝إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ۝فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ۝فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ۝قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ۝كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[3].

ومنهم من يعطى كتابه بشماله فيحزن أشد الحزن:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ۝وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ۝يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ۝مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ۝هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ۝خُذُوهُ فَغُلُّوهُ۝ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ... ﴾[4].

وروى أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون ممَّ أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله اعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربّه. فيقول: يا ربِّ، ألمْ تُجِرْني من الظلم؟ قال

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٤٩.
(٢) سورة الإسراء ، الآيات ١٣-١٤.
(٣) سورة الحاقة ، الآيات ١٩-٢٤.
(٤) سورة الحاقة ، الآيات ٢٥-٣٧.

يقول:بلى. قال فيقول: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلاّ شاهداً مني. قال فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيُختم على فيه. فيقال لأركانه: أنطقي. قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يُخلى بينه وبين الكلام. قال فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقاً فعنكنَّ كنتُ أناضل»[1].

الميزان:

لله تعالى ميزان يزن به الحسنات والسيئات. قال تعالى:

﴿ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[2].

وقال:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ... ﴾[3].

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ۝فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ۝وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ۝فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان،حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[5].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق رقم الحديث ٢٩٦٩.
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧.
(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١٠٣، والأعراف، الآية ٩.
(٤) سورة القارعة، الآيات ٦-٩.
(٥) رواه البخاري في كتاب الدعوات (باب:فضل التسبيح)، ومسلم في كتاب الذكر (باب: فضل التهليل والتسبيح والدعاء).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قالت: ذكرتُ النارَ فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم: أيخفُّ ميزانه أم يثقل، وعند الكتاب حين يقال: ﴿هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه: أفي يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وُضِعَ بين ظهري جهنم»[1].

وبعد أن ينقضيَ الحساب يكون الوزن، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة.

والحكمة من الوزن: إظهار العدل، وبيان الفضل؛ إذ أنه يزن مثاقيل الذر خيراً أو شراً.

والإيمان بالميزان واجب، لما وَرَدَ من آيات وأحاديث في ذلك مما استأثر الله بعلمه، لكنا نقول: إذا كان الإنسان في العصر الحديث قد اخترع موازين للحر والبرد والكهرباء والماء ... أفيعجز خالق البشر عن وضع موازين لأعمال البشر من الحسنات والسيئات؟!!

الصراط:

الصراط: هو جسر ممدود على ظهر جهنم، يمرّ عليه الناس كلهم: مؤمنهم وكافرهم. أما المؤمن فيجتازه إلى الجنة بسرعة تتفاوت من مؤمن إلى آخر بمقدار إيمانه وأعماله الصالحة: فمنهم من يكون مروره كلمح البصر، ومنهم من يكون كالبرق، ومنهم من يكون

---

(١) رواه أبو داوود في كتاب السنة (باب: في ذكر الميزان). رقم الحديث ٤٧٥٥.

مروره كالريح العاصف، ومنهم من يمر كالجواد، وناس يمرون هرولة، وناس زحفاً.

أما الكافر، فيترنح على الجسر ثم يسقط في النار؛ إذ تجذبه كلاليب جهنم فيسقط فيها، ولجهنم كلاليب لا يعلم عظمها إلاّ الله.

يقول الرسول ﷺ:

«يُضربُ الصراط بين ظَهْرَيْ جهنم، فأكون أنا وأمتي أولَ من يُجيز، ولا يتكلم يومئذ إلاّ الرسل. ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّمْ، سلِّمْ. وفي جهنم كلاليب مثل شوك السّعدان. هل رأيتم السّعدان؟ قالوا نعم يا رسول الله. قال فإنها مثل شوك السّعدان، غير أنه لا يعلم ما قدْرُ عظمها إلا الله، تخطَفُ الناس بأعمالهم ...»[1].

والإيمان بالصراط واجب، وما أروع ما قاله الإمام الغزّالي:

(فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم، خفّ على صراط الآخرة ونجا، ومَنْ عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثَّرَ في أول قدم من الصراط وتردّى ...)[2].

الحوض:

أعدّ الله لكل نبي من الأنبياء حوضاً تشرب منه أمته قبل دخول الجنة. أما نبينا محمد ﷺ، فقد خصه الله بحوض عظيم، يشرب منه مَنْ آمن بالله ورسوله واستقام على شرع الله، ومات على ذلك ولم يغيّرْ أو يبدّل. وهذا الحوض قد بلغ من السعة الغاية: عرضه مسيرة شهر، وماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وآنيته

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: معرفة طريق الرؤية) رقم ٢٢٩.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/٥٠٧. مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨-١٩٣٩.

كعدد نجوم السماء أو أكثر، فيه ميزابان يصبان من الكوثر، مَنْ شربَ منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً. قال رسول الله ﷺ:

«حوضي مسيرة شهر. ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شربَ منه لا يظمأ أبداً».

وفي رواية: «مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورِق... وذكر نحوه»[١].

أما الذين لم يستقيموا على شرع الله فغيّروا وبدّلوا، فإنهم يُبعدون عن الحوض كما يبعد الغريب. يقول الرسول ﷺ:

«... وأنا فَرَطُهُمْ على الحوض[٢] ألا ليُذادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال أناديهم: ألا هلمّ! فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول سُحقاً سُحقاً»[٣].

وقد كثرت الأحاديث الواردة في الحوض، حتى بلغت حدّ التواتر، رواها بضعةٌ وثلاثون صحابياً، لذلك صار الإيمان بالحوض واجباً.

الأعراف:

هي الأسوار التي تفصل بين الجنة والنار، يقف عليها أقوام قصرتْ حسناتهم عن دخول الجنة، ولم تبلغ سيئاتهم كثرةً تُدخلهم النار. وهؤلاء ينظرون إلى الجنة ويخاطبون أهلها، وينظرون إلى

---

(١) رواه البخاري في الرقاق (باب: في الحوض)، ومسلم في كتاب الفضائل (باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته).
(٢) فَرَطهم: متقدمهم إليه.
(٣) رواه مسلم في كتاب الطهارة (باب: استحباب إطالة الغرّة والتحجيل في الوضوء). ومعنى سحقاً سحقاً: أي بعداً لمن غير بعدي.

النار ويكلمون أهلها: فهم في هذا المكان يرجون رحمة الله بدخولهم جنته، ويخافون من النار، فيدْعون ربهم ألاّ يكونوا من أهلها. قال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ۝وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۝وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ۝أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ۝وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ۝الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1].

الشفاعة:

الشفاعة هي الدعاء المستجاب. وهي مظهر عظيم من مظاهر رحمة الله بمن شاء من عباده. ويملك الرسول ﷺ الشفاعة العظمى التي لا تكون إلا له: وذلك حين يسأل الله أن يفصل بين الخلائق، بعد ذلك الجهد والتعب الذي يصيب الناس؛ ليتخلصوا من ذلك الموقف

(١) سورة الأعراف ، الآيات ٤٧-٥١.

الرهيب، ويستجيب الله لرسوله ويقبل شفاعته، فعن أبي هريـــرة ﷺ قال:

«أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْـــهِ الـــذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهَـــلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ يَجْمَعُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِـــي صَـــعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِـــنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لا يُطِيقُونَ وَمَا لا يَحْتَمِلُونَ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ أَلا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ أَلا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُـــمْ إِلَى رَبِّكُمْ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ ائْتُوا آدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَـــا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى إِلَـــى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْـــسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْـــتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الأَرْضِ وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّـــكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْـــلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ

مِثْلَهُ وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لأَحَدٍ قَبْلِي ثُمَّ يُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ اشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنْ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الأَبْوَابِ وَالَّذِي نَفْسُ

مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[1].

هذه هي الشفاعة العظمى للنبي محمد ﷺ.

مراتب الشفاعة:

وللشفاعة مراتب:

١- في فصل القضاء بين الخلائق لإراحة الناس من هول ذلك الموقف: وهي الشفاعة العظمى التي أعطاها الله لمحمد ﷺ.

٢- يُدْخِلُ الله أقواماً بغير حساب: وهم السبعون ألفاً الذين لا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

٣- يخرج الله الموحدين من النار، بعد أن عُذِّبوا فيها فترة من الزمن يعلمها الله بسبب ارتكابهم الذنوب. وإخراج هؤلاء تكريم للشافعين.

٤- الشفاعة لقسم من الكفار ليخفف عنهم العذاب: كما هو الحال في (أبي طالب) الذي يُجْعَلُ في ضحضاح من النار، يغلي منه دماغه. وهذا أخف أنواع العذاب على الكفار.

٥- يرفع الله درجات ناس في الجنة بسبب الشفاعة.

ويشترك في هذه الشفاعة: الأنبياء، والعلماء، والشهداء، والصالحون.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير (باب-ذرية مَنْ حملنا مع نوح)، البخاري مع الفتح، ٨/٣٩٥-٣٩٦، ومسلم في كتاب الإيمان (باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها)، ١/١٨٤-١٨٦ واللفظ لمسلم.

للشفاعة شرطان:

ولا تكون الشفاعة إلا بعد أن يتحقق شرطان:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع.

الثاني: رضي الله عن المشفوع له.

وهذان الشرطان يرجعان إلى الله وحده.

ودليل الشرط الأول:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاّ بِإِذْنِهِ﴾[1].

ودليل الشرط الثاني قوله تعالى:

﴿... وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[2].

الغرور بالشفاعة:

لا يغترَّ أحد بالشفاعة فيمنِّي نفسَه بها من غير أن يقدِّم كثيرَ عمل خالص؛ ذلك أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع، وإذن الله غيب لا يعلمه إلا هو. فهي تنال مَنْ قلَّتْ حسناتهم عن سيئاتهم قليلاً: كمثل الطالب الذي يأخذ بالامتحان ٤٧ درجة مثلاً ودرجة النجاح ٥٠. فهو يحتاج إلى ثلاث درجات ليصل إلى النجاح. أما الذين حصلوا على درجات واطئةٍ جداً، فلا يفكر أحد في نجاحهم.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٥.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٢٨.

الجنة:

الجنة: هي الدار التي أعدها الله لمن آمَنَ به وعمل صالحاً. فهي دار الموحدين، ودار المتقين من عباد الله الصالحين، ودار المجاهدين في سبيل الله، ودار الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. وهي واسعة جداً: عرضها كعرض السماوات والأرض! ولا غرابة في هذا فإن الأرض يوم القيامة تبدل غير الأرض قال تعالى:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1].

والذي يدخل الجنة لا يخرج منها. وفيها يأكلون ويشربون، ويلبسون ويتنعمون. وفي الجنة أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفًّى، ولهم فيها من كل الثمرات، وفي الجنة ما لا عين رأتْ، ولا أُذُنْ سمعت، ولا خَطَرَ على قلب بشر. وإذا كان القرآن الكريم قد تحدث في نعيم الجنة وأشجارها وثمارها وطعامها وشرابها، فقد أراد من ذلك أن يُقرِّبَ هذا النعيم إلى أذهاننا، وإلاَّ فإن نعيم الجنة أعظم مما نتصوره في دنيانا.

ويَنْزِعُ اللهُ ما في صدور أهل الجنة من غل، فيصيرون إخواناً على سُرُرٍ متقابلين، لا يصيبهم فيها تعب ولا ملل ولا ضجر. وأول من يدخل الجنة هو سيدنا رسول الله ﷺ. فهو أول من يدق باب الجنة، فيَفتح له الملك ويقول: أُمِرْتُ أن لا أفتحَ لأحدٍ قبلك.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٤٨.

النار:

إذا كان الله ﷻ يثيب المؤمنين بالجنة، فإنه يعذِّب الكفارَ والفجار بالنار؛ جزاء ما اقترفوا من عقيدة فاسدة وعمل قبيح. والنار -أعاذنا الله منها- هي دار الكافرين، والمستكبرين عن عبادة الله ... وهؤلاء يُعذَّبون بالسلاسل والأغلال ومقامع الحديد، وتُقَطَّعُ لهم ثيابٌ من نار، ويُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم. وأهون الناس عذاباً مَنْ له نعلان من نار في أخمص قدميه، يغلي منهما دِماغه، ما يظن أنَّ أحداً أشدَّ منه عذاباً، وإنه لأهونهم عذاباً. وهذه النار -وإنْ كانت أشدَّ من نار الدنيا- فقد خلق الله الإنسان فيها على طبيعة تختلف عن طبيعته في الدنيا: فتسلط النار على جلده فتنضجه ليذوقَ العذاب، ولا يموت فيها ولا يحيا.

والنار -أعاذنا الله منها- دركاتٌ كثيرة بعضها دون بعض، وأشدها عذاباً أسفلها: وهي التي يُعذَّبُ فيها المنافقون. ونارنا في الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم.

والنار حق، ولا يخلد المؤمن فيها. أما المشرك، فيخلد فيها؛ لأنه أنكر ألوهية الله وربوبيته.

من ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

١- المؤمن باليوم الآخر يحرص على طاعة الله، طمعاً في أن ينال ما أعدَّ الله له من الثواب الجزيل، كما أنه يبتعد عن معصيته سبحانه؛ خوفاً من عقابه تعالى.

٢- إذا كان الإنسان المؤمن يفوته من نعيم الدنيا ومتاعها، فـــإن الإيمان باليوم الآخر يبعث في نفسه اليقين أنه سينال أكثر من ذلك في العالم الآخر، متذكراً ما قاله الله ﷻ في الحديث القدسي:

(أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ ســـمعت، ولا خطر على قلب بشر)[١].

٣- المؤمن باليوم الآخر يجعل رقابته علـــى نفـــسه مـــستديمة، فتكون تصرفاته مع الناس الآخرين طيبة، فلا يتكالب على الدنيا، ولا يلحق الضرر بالناس الآخرين.

٤- يبعث الإيمان باليوم الآخر السكينة والطمأنينة فـــي قلـــوب المؤمنين به: فلا ينالهم الضجر والاكتئاب إذا أصابتهم المصائب.

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق (باب: ما جاء في صفة الجنة) وفـــي أبـــواب أخرى، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها رقم الحديث ٢٨٢٤، والترمـــذي في كتاب تفسير القرآن، (باب: ٣٣ ومن سورة السجدة) رقم الحديث ٣١٩٧.

الإيمان بالقضاء والقدر

أسس الإسلام عقيدة القضاء والقدر على الإيمان بالله وبصفاته الكاملة. ومن صفاته: علمُه الأزلي الذي أحصى كل شيء. قال تعالى:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1].

وإذا تتبعنا كلمة (القَدَر) في القرآن الكريم، نرى أن المقصود به: النظام المحكم الدقيق الذي جعله الله لهذا الوجود، والسنن الكونية التي ربط الله بها الأسباب بمسبباتها، أو أنه ما قدّره الله تعالى منذ الأزل ...

أما القضاء، فهو: إيجاد الكائنات وتسييرها حسب ما قدَّره الله لها في الأزل.

ويمثل الفرقَ بين القضاء والقدر الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، فيذكر أن العمارات التي تشيد يقوم بتصميمها مهندس، وينفذها مقاول. فالمهندس هو الذي يقوم بتصميم العمارة، مبيناً ما تحتاجه من مواد إنشائية وأبواب ونوافذ، والمقاول ينفذ ما صممه المهندس. وما مَثَلُ المهندس –ولله المثل الأعلى– إلا كمثل القَدَر، وما مَثَل المقاول إلا كمثل القضاء!

---

(١) سورة يونس، الآية ٦١.

وإذا كان المهندس من حقه أن يبدِّل ويغيِّرَ في التصميم، فإن الله تعالى من رحمته بعباده أن جعل قسماً من الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى الله، سبباً في رفع ما كان مقدّراً. ومن هنا يتبين لنا أهمية الدعاء وفائدته؛ إذ لو كانت الأمور لا تتبدل ولا تتغير، لما كان للدعاء من فائدة، ولما كان لبعثة الأنبياء من فائدة أيضاً.

الإنسان مجبر:

هناك أمور لا خيار للإنسان له بها: مثل طول الإنسان وقصره، وجماله أو قبحه، والزمان الذي ولد فيه، فإن هذا وأمثاله لا يَدَ للإنسان فيه، والله تعالى وحده هو الذي يوجه الحياة، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ۝هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ولا ريب أن الله لا يحاسب الإنسان على شيء من ذلك؛ لأن ذلك لم يجر بإرادة الإنسان: فهو مجبر في هذه الناحية، والثواب أو العقاب إنما يناط بالحرية، أما المكره، فلا يعاقب على فعله، والله تعالى يقول:

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٥-٦.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢٨٦.

وعلى الإنسان في هذه الحالة أن يؤمن بالقدر، لأنَّ الله تعالى قد قدَّره منذ الأزل.

حرية الإرادة:

خلق الله الإنسان مزوداً بملكات وقوى يمكن أن يوجهها (الإنسان) نحو الخير، كما يمكن أن يوجهها نحو الشر. ويستطيع الإنسان بما وهبه الله من عقل أن يميز بين الخير والشر، ويستطيع بإرادته أن يُقدم على أعمال الخير أو أعمال الشر ... إنه يستطيع أن يضرب بقوته التي أعطاها الله له الأبرياء ويسيء إليهم، كما يقدر على مساعدتهم والإحسان إليهم باختياره الكامل ... إن عمله الأول إساءة يستحق عليها العقاب، وعمله الثاني إحسان يستحق عليه الثواب. وهذا مثال يوضح ما نريد تقريره:

إذا كان في بيتك آلة تسجيل، ومعها أشرطة قد سُجِّل فيها أغانٍ مائعة مبتذلة، وأشرطةٌ أُخرى سُجِّلَ فيها تربية، وتوجيه، وتثقيف، وتسلية بريئة، وقد أمرتَ أولادك أن لا يسمعوا الأغاني المائعة، وتوعدتَ من سمع شيئاً من هذه الأغاني بإنزال القصاص به، ودخلتَ البيت فجأةً؛ فوجدتَ أولادَك وهم آذان صاغية لهذه الأغاني المبتذلة، فإنك لا تعاقب أولادَك على خلْق الطاقة التي بذلوها في تشغيل آلة التسجيل، وإنما تعاقبهم؛ لأنهم توجهوا بإرادتهم إلى سماع هذه الأغاني التي نُهُوا عن سماعها. فلم تكن العقوبة بسبب الفعل، بل بسبب توجيه الفعل. وقد قرر هذه الحقيقة الإمام أبو حنيفة –رحمه الله– فقال:

(إن الاستطاعة التي تُعْمَلُ بها المعصية، هي بعينها تصلح لأنْ يُعملَ بها الطاعة. وهو معاقب في صرف الاستطاعة التي أحدثها الله تعالى فيه، وأمره أن يستعملها في الطاعة دون المعصية)[1].

هذه الحقائق أشار إليها القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا۞فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا۞قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا۞وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[2].

وقوله:

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

فلم يجبر الإنسان على عمل من الأعمال، بل هو مختار.

مع الضالين والعصاة:

يحاول الضالون والعصاة أن يبرروا ضلالهم وعصيانهم: فهم يزعمون أنَّ الله هو الذي أضلهم وأرغمهم على ترك العبادات والطاعات، في الوقت الذي هدى الناسَ الآخرين. وكثيراً ما يستشهدون على زعمهم بقول الله تعالى:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[4].

ونقول لهؤلاء: عليكم أن تعلموا أن الهداية تقسم إلى قسمين:

١- هداية إرشاد.

---

(١) أركان الإيمان تأليف وهبي سليمان الألباني، ص٣٠٨، الطبعة الأولى، ١٣٩٧، مؤسسة الرسالة.
(٢) سورة الشمس، الآيات ٧-١٠.
(٣) سورة الإنسان، الآية ٣.
(٤) سورة القصص، الآية ٥٦.

٢- هداية إعانة.

(أما هداية الإرشاد، فهي كمنْ يدلُّك على الطريق الذي يُوصلُكَ إلى البيت الذي تريد، ثم يتركك. فهو قد هداك إلى الطريق وأرشدك.

ورسل الله يقومون بهذه الهداية للبشرية، فهم يرشدون الناس إلى الطريق الذي يوصلهم إلى الجنة، قال تعالى مخاطباً رسول الله ﷺ:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[(١)].

(أما هداية الإعانة، فمثلها كمثل شخص كريم رحيم ودود، سألتَه عن الطريق إلى البيت الذي تريد، فأرشدك إليه، فطلبتَ منه العون، فَحَمَلَكَ على سيارته، وأخذ بيدك إلى هدفك، فهذه هداية إعانة. وهذه لا تكون إلا لشخص قَبِلَ هداية الإرشاد وطلب العون).

(وإذا كان الرسل يقومون بهداية الإرشاد، فهم لا يملكون هدايةَ التوفيق والمعونة؛ لأن الله -سبحانه- لا يعطيها إلا لمن يعلم أنه يستحقها. قال تعالى مخاطباً نبينا محمداً ﷺ:

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[(٢)].

فهو العادل الذي يهدي مَنْ قَبِلَ هداية الإرشاد بهداية التوفيق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[(٣)]. ولا يُضِلُّ -سبحانه- إلاَّ مَنْ يستحق الإضلال ممن رفض هداية الإرشاد،

---

(١) سورة الشورى، الآية ٥٢.
(٢) سورة القصص، الآية ٥٦.
(٣) سورة محمد، الآية ١٧.

وزاغ عن الطريق، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1])[2].

شبهة ساقطة:

(يقول بعض الجهلة: إن ما كتبه الله في اللوح، هو الذي جعل تارك الصلاة تاركاً للصلاة، وجعل المصلي مصلياً! وهذا وَهْم؛ لأن المصلي يقوم إلى الصلاة باختياره دون إجبار، وتارك الصلاة يتركها دون إكراه أو إجبار. وهذا ما يعرفه كل إنسان؛ لأن الله أراد أن يخلق الإنسان وله حرية واختيار.

أما إذا سألت السائل: كيف لا يكون ما قد كتب في اللوح مجبِراً للإنسان على العمل، مع أنه قد كُتِبَ منذ الأزل؟ فنقول: إن الأمر سهل، يوضحه هذا المثال:

ألا ترى أن الأستاذ الذكيَّ الخبير بأحوال طلابه، الذي يضع أسئلة الامتحان، لو أنه كتب في ورقة أسماء من هو متأكد من أنهم سيرسبون في الامتحان، وبيَّنَ أسماء من هو متأكد من نجاحهم. ثم جاء الامتحان، وظهرت النتيجة، ثم جاء الذين رسبوا محتجين بقولهم: إن ما كتبه الأستاذ علينا في الورقة بأننا سنرسب هو السبب في رسوبنا! فهل سيُقبَلُ عذرُهم؟ أم أنه سيقال لهم: إنَّ ما كتبه الأستاذ في الورقة أمر متعلق بعلمه وخبرته السابقة بأحوالكم، ورسوبكم متعلق بإهمالكم؛ فلا تعتذروا لإهمالكم بعلم الأستاذ وخبرته -ولله المثل

---

(١) سورة الصف، الآية ٥.
(٢) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص٢٠٣-٢٠٥، الطبعة الخامسة ١٤٠٧-١٠٨٧، دار القلم/دمشق.

الأعلى- فهو -سبحانه- خالق الخلق، وهو العليم بأحوالهم، قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١] ولقد خَلَقَنا الله - سبحانه- لقضاء فترة الامتحان على هذه الدنيا، وهو -جلّ شأنه- يعلم نتيجة الامتحان؛ فكتبَ الشقاء على الأشقياء، وكتبَ السعادة للسعداء حسْبَ عِلْمِهِ المحيط بما كان وما سيكون.

وربما أخطأ الأستاذ في تقديره لنتائج طلابه، لكنَّ الله لا يخطئ في تقديره لأعمال خلقه، والكتابةُ في اللوح المحفوظ أمر متعلق بعلم الله السابق. فتَرْكُ الصلاة -مثلاً- أمر متعلق بتمرد وإهمال ومعصية تارك الصلاة. وقد أراد الجاهلون أن يعتذروا للمعصية والضلال بعلم الله وكماله!! إن علم الله سابق لا سائق)[٢].

وزيادة في إيضاح هذه المسألة أقول:

إن الإنسان الذي يؤثر الغواية على الهداية، والضلال على الرشاد، يقرُّه الله على ما أراد، والله تعالى يقول:

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٣].

ويقول:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[٤].

---

(١) سورة الملك، الآية ١٤.
(٢) الإيمان تأليف عبد المجيد الزنداني ورفاقه، ص٢٠٥-٢٠٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٧-١٠٨٧، دار القلم/دمشق.
(٣) سورة الصف، الآية ٥.
(٤) سورة النساء، الآية ١١٥.

وهكذا يبدو واضحاً أن الإنسان حين يريد الضلال، يُقـرُّه الله على ما أراد. وتأتي الهداية والإضلال مـسببات لأسـباب، ونتـائج لمقدمات. وحين يُسند الله الهداية والإضلال إلى نفسه الكريمة، فقـد كان ذلك؛ لأن الله هو الذي وضع نظام الأسباب والمسببات. وهذا لا يعني أن الله أجبر أحداً على الهداية أو الضلال!

لماذا الإيمان بالقدر:

أسرار الله في هذا الكون كثيرة كثيرة، ولا يستطيع الإنسان أن يحيط بها علماً. ومن الجهالة أن يعترض الإنسان على حكم من أحكام الله. وما مثل الإنسان المعترض على بعـض أحكـام الله إلا كمثـل الإنسان الجاهل رأى طبيباً يفتح بطن مريض، ويجـري لـه عمليـة استئصال المرارة، أو جزء من الأمعاء، فهو يعترض على الطبيـب أشد الاعتراض، لكنه إذا عرف حكمة الطبيـب فـي تـصـرفاته، وخبرته في عمله، فإنه يتراجع عن اعتراضه، ويعترف بجهله. وأين علم الطبيب من علم الله تعالى؟!!!

من ثمرات الإيمان بالقدر:

١- الإيمان بالقَدَر يجعل الإنسان في راحة تامة، ويبعـث فـي نفسه الاطمئنان؛ لأنه يعلم أنّ المكروه إذا أُصيب به كان بقـضاء الله؛ فيرضى بقضائه تعالى: فهو لا يأسى على ما فاتـه، ولا يجـزع إذا أُصيب بمصيبة. قال تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ۝لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1].

٢- الإيمان بالقدر يجعل المسلم معتمداً على الله في فعل الأسباب؛ لأنه يعلم أن السبب والمسبب كان بقضاء الله وقدره.

٣- يبعث الإيمان بالقدر على تهذيب النفس، وطرد الإعجاب منها عند حصول المراد؛ ذلك أن النعم التي يصيبها الإنسان إنما كان ذلك بما قدَّره الله من أسباب الخير؛ فيشكر لله تعالى، ويَدَعُ العُجْبَ بالنفس، ولا يقول كما قال قارون:

﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[2].

٤- الإيمان بالقضاء والقدر يبعث الطمأنينة -مرة أخرى- في نفس المؤمن؛ لأنه يعلم أنَّ الله عليم حكيم، لا يضع شيئاً إلا لحكمة. وإذا خفيت الحكمة عن عقول البشر؛ فذلك لقصور العلم البشري.

---

(١) سورة الحديد، الآيات ٢٢-٢٣.
(٢) سورة القصص، الآية ٧٨.

كلمات حاسمة

هذه كلمات في قضايا مهمة، آثرتُ ذكرها هنا لحاجة كثير من الناس إليها، وذلك لما نراه ونسمعه في كثير من الأيام من نقاش طويل، وجدال عريض هنا وهناك حولها، وقد يطول ذلك النقاش أو يقصر ... وربما يتعصب كل فريق لرأيه؛ فتقع القطيعة، وتحل البغضاء بين الأخوة المتحابين. ومن هذه القضايا:

الكرامات:

الكرامة أمر قد يكون خارقاً للعادة، لكنه غير مقرون بالتحدي، يظهره الله على أيدي قسم من عباده الصالحين تقوية لإيمانهم، أو لإقامة الحجة على خصومهم. وهي من الأمور الجائزة عقلاً والواقعة فعلاً، لكنَّ وقوعها لا يدل على أن أصحابها هم أفضل من غيرهم. كما أن الأولياء الذين لم تظهر على أيديهم كرامة لا يدل على نقصهم. وقد يكون ما يعطيه الله لعبده المؤمن من الاستقامة على كتاب الله وسنة رسوله كرامة من أعظم الكرامات. وقد ذكر القرآن الكريم كرامات كثيرة، منها حمل السيدة مريم بسيدنا عيسى ﵇ من غير أن يمسها بشر، وقصة أصحاب الكهف والرقيم الذين أنامهم الله ثلاثمائة من السنين وازدادوا تسعاً.

ومن الكرامات التي ذكرها رسول الله ﷺ قصة (العابد جُرَيج) الذي اتُّهم بالزنا؛ فتكلم المولود الرضيع ببراءته، وقصة الغلام

المؤمن مع الملك الكافر الذي حجب الناس عن الإيمان بالله. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ۝وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ۝وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ۝قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ۝النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ۝إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ۝وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ۝وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[١].

وهناك كرامات كثيرة لصحابة رسول الله ﷺ منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأُسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر، وسعد بن أبي وقاص ...

والكرامة لا يثبت بها حكم من الأحكام الشرعية، ولا ينتفي بها حكم شرعي أيضاً. ويُحتَرَمُ الإنسان صاحب الكرامة بقدر تمسكه بعقيدة الإسلام وشريعته، فإذا قصَّرَ في ذلك؛ فينبغي أن يفقد المحبة من قلوب الناس. قال يونس بن عبد الأعلى الصفدي:

قلتُ للشافعي: كان الليث بن سعد يقول:

(إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، فلا تغتروا به، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة).

فقال الشافعي:

(بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة)[٢].

---

(١) سورة البروج، الآيات ١-٨.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، تأليف عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص٤١١، الطبعة الثانية / دار القلم / دمشق بيروت.

الأولياء:

الولي: هو مَنْ عرف الله معرفة صحيحة، وواظب على طاعته، وأعرض عن الانهماك في الشهوات المباحة، وحافظ على السنن والآداب الشرعية.

والولي يرفع الله عنه الخوف والحزن، ويدخل عليه السرور.

وأولياء الله ليسوا في درجة واحدة، بل هم متفاوتون: فكلما كان الولي أكثرَ إيماناً وتقوى، صارت ولايته لله أقرب. وصحابة رسول الله هم أفضل الأولياء. وأفضل الصحابة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ثم سائر العشرة المبشرين بالجنة، والذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة.

فليس هناك تلازم بين الولاية وخوارق العادات: فقد يظل المؤمن المتقي طول حياته لا يجري الله على يديه خرقاً للعادة.

والولي لا يعلن عن نفسه، بل ينقاد انقياداً تاماً لأوامر الله ورسوله، وينظر إلى نفسه –دائماً– على أنه مقصر، فيحاسب نفسه على كل صغيرة، ويبتعد عن مواطن الشبهات، ويزهد فيما في أيدي الناس.

ولقد أخطأ كثير من الناس حين رفعوا مقام الأولياء إلى مقام يقرب من مقام الألوهية، وذلك باعتقادهم أن الأولياء يستطيعون كشف الضر عن الناس، ويلحقون أذى بأناس آخرين، ويستطيعون أن يمنحوا الأولاد لمن كان عقيماً؛ لذلك يقوم هؤلاء على قبورهم

يعظمونهم. وقد نعى القرآن الكريم على مَنْ يسلك هذا المسلك الضال، فقال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ۝قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾(١).

ولا ريب أن الأولياء هم أول من يتبرأ من هؤلاء، ويرفض هذه المكانة التي يرفعهم إليها الجاهلون.

فما على المسلم إلاَّ أن يحذر –أشدَّ الحذر– من الدجالين والمشعوذين الذين يقومون بخداع الناس؛ ليلعبوا بعقولهم، ويسلبوا منهم أموالهم.

العلم الباطن:

لقد بلَّغَ الرسول ﷺ ما أنزله الله إليه، ولم يكتم منه شيئاً، سواء كان في العقيدة أو الشريعة، ولم يخص واحداً بحكم من أحكام الشريعة من دون سائر الصحابة، ولم ينزل وحيٌ على أحد مع محمد ﷺ، ولا على أحد من بعده. فليس في الإسلام علم باطن يخالف ظاهرَ الشريعة التي يدين بها المسلمون، ومَنْ ادعى ذلك، فقد افترى على الله الكذب.

---

(١) سورة الفرقان، الآيات ١٧-١٨.

وأما الاحتجاج بما كان بين (موسى) و (الخضر) عليهما السلام فليس بصحيح؛ ذلك أنَّ كلاً منهما كانت له شريعة خاصة به يقوم بأدائها -وإن كانا في وقت واحد-: فكان موسى يتصرف بأمر ربه، وكان الخضر يتصرف بأمر ربه أيضاً؛ إذ كان الخضر نبياً يعمل بوحي من الله. يدل على ذلك قول الخضر عليه السلام -كما حكى القرآن الكريم-:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[1].

القبور وزيارتها:

مَنَعَ النبيُّ محمد ﷺ من زيارة القبور بعد البعثة أوَّلَ الأمر؛ سداً لذريعة الشرك، ثم أذِنَ بزيارتها لمَّا تمكَّن التوحيد في قلوب المسلمين. وهذه ملاحظات عن القبور وزيارتها:

١- زيارة القبور مشروعة، بل هي سنة للرجال بهدف الاتعاظ والاعتبار، وتذكر الدار الآخرة، وترقيق القلوب، والدعاء للأموات من المسلمين؛ لحديث رسول الله ﷺ:

(كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تُزهِّدُ في الدنيا، وتذكِّر الآخرة)[2].

٢- يستحب أن ندعو للأموات بالمغفرة، ويحرم أن نَدْعوَهم، أو نطلبَ منهم شيئاً، أو نستعين بهم، أو نسأل الله بحقهم. وقد كان رسول الله ﷺ يقول

عند زيارة القبور:

---

(١) سورة الكهف، الآية ٨٢.
(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز، (باب: ما جاء في زيارة القبور).

(السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله (بكم) للاحقون. أسأل الله لنا ولكم العافية)[1].

٣- نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبور والصلاة إليها فقال:

(لا تُصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها)[2].

٤- يحرم تجصيص القبور والبناء عليها. ففي الحديث الشريف: (نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يبنى عليه)[3].

الإيمان بالوعد والوعيد:

لا نجزم لأي إنسان كان بالجنة ولا بالنار إلا لمن جزم له رسول الله ﷺ بذلك، ولكن نرجو للمحسن الجنة، ونخاف على المسيء من النار. فنشهد بالجنة للعشرة المبشرة؛ لأن النبي ﷺ شهد لهم بها وهم:

١- أبو بكر الصديق
٢- عمر بن الخطاب
٣- عثمان بن عفان
٤- علي بن أبي طالب
٥- طلحة بن عبيد الله
٦- الزبير بن العوام
٧- عبد الرحمن بن عوف
٨- سعد بن أبى وقاص
٩- سعيد بن زيد
١٠- أبو عبيدة عامر بن الجراح

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز، (باب: ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها)
(٢) رواه مسلم في كتاب الجنائز، (باب: النهي عن الجلوس على القبر والصلاة عليه).
(٣) رواه مسلم في كتاب الجنائز، (باب: النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه).

كما نشهد بالجنة لغير هؤلاء ممن شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة مثل:

بلال بن رباح وجعفر بن أبي طالب وعمرو بن ثابت
وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ
وجميع زوجات النبي ﷺ وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

الصحابة الكرام:

خصَّ الله رسوله محمداً ﷺ بصحابة كرام، نشروا دعوته، وجاهدوا في الله حق جهاده، وقد مَدَحَهم الله في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وقوله:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(٢).

وقوله:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٦٤.
(٢) سورة الفتح، الآية ١٨.

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[١].

أما رسول الله ﷺ، فقد مَدَحَ أصحابه في أحاديث كثيرة، منها قوله:

(خيرُ أُمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ...)[٢].

وقوله:

(الأنصارُ لا يُحبُّهم إلا مؤمن، ولا يُبْغضهم إلا منافق، فمن أحبَّهم أحبَّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[٣].

لذلك قال ابن عبد البر وهو يتحدث في عدالة الصحابة:

(ثبتت عدالة جميعهم بثناء الله ﷻ عليهم، وثناء رسوله ﷺ ولا أعدل ممن ارتضاه الله لصحبة نبيه ونصرته، ولا تزكية أفضل من ذلك، ولا تعديل أكمل منه ...)[٤].

والصحابة ليسوا في درجة واحدة في الفضل: فأفضلهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي على الترتيب، ثم بقية العشرة المبشرة بالجنة، ثم بقية الصحابة كل على منزلته ...

---

(١) سورة الفتح، الآية ٢٩.
(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، (باب: فضائل أصحاب النبي ﷺ)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (باب: فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).
(٣) رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، (باب: حب الأنصار من الإيمان)، ومسلم في كتاب الإيمان وعلاماته (باب: الدليل على أن حب الأنصار وعليّ رضي الله عنهم من الإيمان).
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبن عبد البر ٢/١، بتحقيق علي محمد البجاوي / مطبعة نهضة مصر / القاهرة.

ويمسك المسلم عما جرى بين الصحابة، ويعتقد أنهم مجتهدون في ذلك. فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجـــر واحـــد. مقتدين في ذلك بالإمام الشافعي ﷺ وقد سئل عما جرى بين الصحابة فقال:

(تلك دماء طهَّرَ اللهُ أيدينَا منـــها، فـــلا نلوِّث ألســـنتنا بها)[1].

ومقتدين –أيضاً– بالإمام أحمد بن حنبل ﷺ، وقد سئل عن أمر عائشة وعليٍّ رضي الله عنهما؛ فأجاب بتلاوته لقوله تعالى:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُـــسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وما أروع ما قرره الشيخ محمد الشيباني في منظومته في عِلم العقائد إذ يقول:

ونسكتُ عن حرب الصحابة فالذي
جَرَى بينهم كان أجْتهاداً مُجَرَّدا
وقد صـــحَّ في الأخبـــار أنَّ قتيلهم
وقاتِلَهم في جنـــة الخـــلدِ خُلِّدا

وقال الشيخ عبد السلام اللقاني:

(البحث عمّا جرى بين الصحابة من الموافقة والمخالفة، لـــيس من العقائد الدينية، ولا من القواعد الكلامية، وليس مما ينتفع به فـــي الدين، بل ربما أضرَّ باليقين)[3].

---

(١) المعتقد الإيماني شرح منظومة الشيباني لأبي البقاء الأحمدي الـــشافعي، ص٤١، نشره محمد رؤوف الغلامي، مطبعة شفيق، بغداد، ١٣٨١-١٩٦٢.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٤١. وأنظر: المعتقد الإيماني ص٤١.
(٣) شرح جوهرة التوحيد للشيخ عبد السلام اللقاني، ص٢٠٣-٢٠٤، الطبعة الثانيـــة، ١٣٧٥-١٩٥٥، مطبعة السعادة / القاهرة.

عقيدتنا بين الدليل القطعي والظني

هل تؤخذ العقيدة الإسلامية من آيات القرآن القطعية الثبوت والدلالة فقط؛ أم تؤخذ -أيضاً- من الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ؟

هذا الموضوع كثرت الكتابة فيه: فمنهم مَنْ ذهب إلى أن العقيدة الإسلامية لا تؤخذ إلا من آيات القرآن القطعية الثبوت والدلالة، ومنهم من ذهب إلى أن العقيدة تؤخذ -أيضاً- من الأحاديث الصحيحة. وقد استدلّ كل من الطرفين بأدلة. ولا شك أن صاحب كل رأي من الرأيين كانت غايته خدمة العقيدة.

القول الأوّل:

ذهب بعض العلماء إلى أن العقيدة لا تؤخذ إلاَّ من أدلة قطعية الثبوت وقطعية الدلالة معاً، لذلك صارت توجب العلم وتفيد التصديق الجازم. وقرر أصحاب هذا الرأي: أن الدراسة للآيات القرآنية، تهدي إلى أن القرآن الكريم قطعي الثبوت لا شك في ذلك، وأما دلالته، فبعض الآيات قطعية الدلالة، وبعضها الآخر ظنية الدلالة، وإذا كانت العقيدة لا تؤخذ إلا من دليل قطعي الثبوت والدلالة، فلأنَّ الظني في مدلوله اللغوي يعني إفادة الاحتمالين مع ترجيح أحدهما. فلا يجوز إذن الاستدلال بالدليل المحتمل لمعنيين أو أكثر. ويستأنس أصحاب هذا القول بالقاعدة الأصولية: (الدليل إذا

طرقه الاحتمال، بطل به الاستدلال). ويستشهد أصحاب هذا القول بآيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿إِنْ هِيَ إِلاّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى۞وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[2].

﴿... وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[3].

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ۞وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[4].

فهذه الآيات –وغيرها كثير– تنصُّ نصاً صريحاً في ذم مَنْ يتَّبع الظن في العقيدة، وهذا الذم يدل دلالة واضحة على النهي عن اتباع ما لم يقم الدليل القاطع عليه في أمر العقيدة.

وإذا كان الاستدلال بالدليل الظني لا يجوز في أمر العقيدة، فإن الأحكام الشرعية تختلف عن ذلك: فيجوز الاستدلال بالدليل الظني بها. كالاستدلال بأحاديث الآحاد.

---

(١) سورة النجم، الآية ٢٣.
(٢) سورة النجم، الآيات ٢٧-٢٨.
(٣) سورة النساء، الآية ١٥٧.
(٤) سورة فصلت، الآيات ٢٢-٢٣.

وحين ينظر المتأمل في آيات سورة النجم التي ذكرناها، نجد أنها وردت في أمر العقيدة. ذلك أن المشركين كانوا يقولون: الملائكة والأصنام بنات الله؛ لذلك اتجه قسم من المشركين إلى عبادة الملائكة، واتجه بعضهم إلى عبادة الأصنام. وهكذا نجد آيات سورة النجم تنعى على من يتبع الظن في أمر العقيدة. وهكذا (الظن) في آيات الظن الأخرى.

وكما نعى القرآن على مَنْ يتبع الظن، فإنه نعى -أيضاً- على كل عقيدة لا تستند إلى برهان أو سلطان. و(البرهان) و(السلطان) كلمتان تفيدان القطع والجزم، فلا يطلق واحد من هذين اللفظين على ما يحتمل الظن، وقد وردت آيات كثيرة في هذا المعنى، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[1].

وقال:

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ...﴾[2].

وقال:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ۝فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

وقال:

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ١١٧
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٢٤.
(٣) سورة الصافات، الآيات ١٥٦-١٥٧.

﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[1].

والمتأمل في كل آية ورد فيها واحد من لفظي: (البرهان) و (السلطان)، يرى أنها جاءت بمعنى: الدليل القاطع.

وهكذا فإن الدليل في العقيدة لا يكون إلا قطعياً. ولا تتحقق قطعيته حتى يكون آية من كتاب الله، وهذه الآية قطعية الدلالة أيضاً.

القول الثاني:

قرَّر أصحاب القول الثاني: أن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين والأئمة الثلاثة: مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله كانوا يفرّقون بين ما ثبت بالمتواتر أو الآحاد في أمر العقيدة. وهناك كلام كثير للإمام (مالك) و(الشافعي) و(أحمد) و(داوود الظاهري) و(ابن حزم) قرروا فيه: أن العقيدة تؤخذ -أيضاً- من الحديث الصحيح. وقد ذهب إلى هذا -أيضاً- (ابن تيمية) فقال:

(ومن الحديث الصحيح ما تلقّاه المسلمون بالقبول فعملوا به ... فهذا يفيد العلم، ونجزم بأنه صدق؛ لأنَّ الأُمة تلقته بالقبول تصديقاً وعملاً بموجبه، والأمة لا تجتمع على ضلالة)[2].

وقال الشوكاني:

(ولا نزاع في أن خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه؛ فإنه يفيد العلم؛ لأن الإجماع عليه قد صيَّرَه من المعلوم

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧١.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٦/١٨.

صدقه. وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، فكانوا بين عامل به ومتأول له. ومن هذا القسم أحاديث صحيحي البخاري ومسلم؛ فإن الأمة تلقت ما فيهما بالقبول...)[1].

وممن ذهب إلى الاحتجاج بأحاديث الآحاد: البخاري، ومسلم، وأبو داوود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة، والطبراني، والدارمي وغيرهم. وقد روى هؤلاء الأعلام أحاديث في العقيدة، وهي من أحاديث الآحاد.

أما ابن قيم الجوزية، فقد ساق أكثر من عشرين دليلاً اثبت فيها أن حديث الآحاد يفيد اليقين، وذلك في كتابه (الصواعق المرسلة).

ويستطيع أصحاب هذا القول أن يوردوا مئات من أحاديث الآحاد في العقيدة، وهي من الأحاديث الصحيحة، فإن القول بعدم الأخذ بها يستلزم ردّها لا لشيء إلا لمجرد كونها وردت في العقيدة.

أما هؤلاء الذين لم يأخذوا بأحاديث الآحاد في العقيدة، فإنهم يقفون -ولا شك- موقفاً حرجاً في عدد كثير من الأحاديث الصحيحة التي وردت في العقيدة، وتلقاها العلماء بالقبول، منها على سبيل المثال:

١- شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر من أُمته.

٢- المعجزات الكثيرة التي ثبتت بأحاديث صحيحة.

٣- الأحاديث الكثيرة في الملائكة، والجن، والجنة، والنار.

---

(١) إرشاد الفحول للشوكاني، ١/٤٩-٥٠، الطبعة الأولى، مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٦-١٩٣٧.

٤- سؤال منكر ونكير.

٥- ضغطة القبر.

٦- الإيمان

٧- دخول سبعين ألفاً من أُمة محمد ﷺ الجنة بغير حساب.

٨- الأحاديث الصحيحة في صفة القيامة والحشر.

٩- أرواح الشهداء في حواصل طير خضر.

١٠- أحاديث نزول سيدنا عيسى عليه السلام، وخروج الدجال، وخروج دابة الأرض ..

وهناك أحاديث كثيرة لم نذكرها خشية الإطالة.

الترجيح:

إذا تأملنا في القول الأول، نرى أن القائلين به كانوا حريصين -كل الحرص- على بقاء العقيدة نقية سليمة. فهم يخشون أن تدخلها الشوائب التي تعكِّر صفوها، وتشوِّه شيئاً من حقيقتها. لكن الأدلة التي استندوا إليها لم تكن بقوة أدلة الفريق الثاني. هذا من ناحية. ومن ناحية أُخرى، فإن كثيراً من مسائل العقيدة التي دُوِّنت في كتب العقائد وتلقاها الناس بالقبول، ثبتت بأحاديث الآحاد، ولم تثبت بآيات قطعية الدلالة.

وإذا كان القول الثاني هو ما أميل إلى ترجيحه، فإن أصل المسألة تتعلق بالتكفير. فمن أنكر قطعي الثبوت: كالآيات الكريمة

والأحاديث المتواترة فإنه يكفّر. ولا يكفَّر مَنْ أنكر حديثاً من أحاديث الآحاد.

وهكذا تكون أحاديث الآحاد الصحيحة مصدراً من مصادر العقيدة. والله أعلم.

هناك مسائل تتعلق بأصول العقيدة الإسلامية اختلف فيها الصحابة الكرام، من ذلك اختلاف السيدة (عائشة) مع (ابن عباس) وغيره من الصحابة ﷺ في أنّ محمداً ﷺ هل رأى ربه ليلة المعراج أم لا؟

فذهبت السيدة عائشة إلى أنّ النبي الكريم لم يرَ ربّه وقالت: ((مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ))(١).

أما جمهور علماء الأمة، فقد ذهبوا إلى ما ذهب إليه (ابن عباس)، من أنه ﷺ رأى ربه.

ومع هذا الاختلاف في أصل من أصول العقيدة، فهم لا يُبدّعون ولا يُفسّقون الذين قالوا بقول (عائشة) رضي الله عنها.

وقد أنكرت (عائشة) رضي الله عنها -أيضاً- أن يكون الأموات يسمعون دعاء الأحياء، ولمّا ذُكر لها حديث النبي ﷺ: ((مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ))(٢).

قالت: إنما قال: ((إِنَّهُمْ الآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ))(٣).

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (باب: معنى قول الله ﷻ: [ولقد رآه نزلة أخرى]، وهل رأى النبي ﷺ ربه ليلة الإسراء؟).

(٢) رواه البخاري، وانظر: فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٣٠١/٧.

(٣) رواه البخاري، وانظر: فتح الباري: ٣٠١/٧.

فقد تأوّلت أم المؤمنين هذا الحديث. ولمّا كانت هذه المسألة من المسائل الاجتهادية، فقد ظلت العلاقة بين الصحابة قوية متينة، مع اختلاف وجهة أنظارهم في قضية مهمة من قضايا العقيدة؛ فلم يُفسِّق واحد منهم الآخر، ولم يقل بتبديعه. فهذا (الإمام ابن تيمية) رحمه الله قال في موضوع عدم المؤاخذة بالخطأ في أمور الاعتقاد:

((ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة- وإن كان ذلك في المسائل العلمية – ولولا ذلك، لهلك أكثر فضلاء الأمة. وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول ﷺ بحسب إمكانه، هو أحق بأن يتقبل الله حسناته، ويثيبه على اجتهاده، ولا يؤاخذه بما أخطأ، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى كما نطق به القرآن، وإنما توقفوا في شخص معين لعدم العلم بدخوله في المتقين))(١).

وقال:

((وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلاّ رسول الله ﷺ. وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطأه يكفر ولا يفسق ولا يؤثم))(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٠/١٦٥-١٦٦.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥/١٠٠.

هذا فيما يتعلق بأصل من أصول العقيدة.

وهناك مسائل ليست من أصول العقيدة الإسلامية في شيء، لكنها أُقحمت فيها، وتباينت تفسيرات العلماء في كل مسألة من مسائلها، وكان من أسباب ذلك الاختلاف: اجتهاد العلماء في فهم قسم من النصوص الشرعية: كاختلافهم في جواز التوسل بجاه النبي ﷺ: فإن من العلماء من أجازه؛ مستدلاً بحديث عثمان بن حنيف: ((أَنَّ رَجُلا ضَرِيرَ الْبَصَرِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي. قَالَ: إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قَالَ فَادْعُهْ. قَالَ: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءهُ، وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ: [اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي لِتُقْضَى حَاجَتِي، اللَّهُمَّ فَشَفِّعْهُ فِيَّ]. قال: ففعل الرجل فبرأ))(١).

فهذا الحديث الشريف يفهم منه جواز التوسل بجاه النبي ﷺ.

وهناك من العلماء من منعَ الدعاء بالجاه؛ مستدلاً بعدم توسل الصحابة بالنبي ﷺ بعد موته أولاً، وبما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه فَقَالَ: [اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا]، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ))(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد: ١٣٨/٤، والترمذي برقم ٣٥٧٨ في كتاب الدعوات (باب: ١١٩) وقال حديث حسن صحيح، وصححه صاحب صحيح الجامع الصغير برقم ١٢٩٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء (باب: سؤال الناس الامام الاستسقاء إذا قحطوا). انظر البخاري مع الفتح حديث ١٠١٠ الطبعة الثالثة دار السلام ودار الفيحاء.

ويفهم من هذا الحديث أن الصحابة ما كانوا يدعون بالجاه.

وكذلك اختلف العلماء في مسألة شدّ الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ. وسبب اختلافهم تباين فهمهم لحديث النبي ﷺ: ((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاّ إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِي هَذَا وَالمَسْجِدِ الأَقْصَى))(1).

فمنعه بعضهم أخذاً من عموم المستثنى منه فقالوا: يحرم شدّ الرحال إلى هدف ديني إلاّ إلى هذه المساجد الثلاثة، وأجازه بعضهم مفسراً الحديث بتلك الفضيلة التامة في شدّ الرحال إلى هذه المساجد الثلاثة: أما شدّ الرحال إلى غيرها فإنه لا يحرم. فكأن النبي ﷺ أراد أن يبيّن الفضيلة الكبيرة في شدّ الرحال إلى المساجد الثلاثة دون سواها(2).

وعند التأمل في هذه القضية، نرى أن الخلاف فيها هو خلاف فرعي قابل للاجتهاد في فهم النصوص، والمصيب فيها له أجران، والمخطئ له أجر واحد، ولا يترتب على المخطئ في الاجتهاد تفسيق ولا تكفير. فلا يجوز الحكم على المخالفين بالشرك والضلال والابتداع.

وإني إذ أتحدث هذا الحديث، مستشهداً على ما ذهب إليه كل من الفريقين، لا أريد أن أرجح بين أقوالهم، لكنني أردت الإشارة إلى روح التسامح التي كان عليها سلف الأمة رضي الله عنهم أجمعين!.

---

(1) رواه البخاري برقم ١١٨٩ في كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (باب:١)، ومسلم برقم ٨٢٧ في كتاب الحج (باب:٧٤).

(2) لزيادة الاطلاع انظر: فتح الباري لابن حجر: ٣/٦٣-٦٨.

ويعجبني في هذا ما ذكره (الإمام الذهبي) في ترجمة (محمد بن نصر المروزي) إذ تحدث المروزي حديثاً في العقيدة لم يرضه علماء عصره، فخالفه أئمة (خراسان) و(العراق)، وهجره العلماء المعاصرون له. ولم يرضَ الإمام الذهبي منهم هذا الموقف، فقد قال:

((ولو أنّا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه وبدّعناه وهجرناه، لما سلم لنا لا ابن نصر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين. فنعوذ بالله من الهوى والفضاضة))[1].

وقال في ترجمة (محمد بن إسحق بن خزيمة):

((وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأوّل في ذلك حديث الصورة[2]؛ فليعذر من تأول بعض الصفات. وأما السلف، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوّضوا علم ذلك إلى الله ورسوله. ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده -مع صحة إيمانه وتوخيه الحق- أهدرناه وبدّعناه، لقلّ من يسلم من الأئمة معنا. رحم الله الجميع بمنِّه وكرمه))[3].

وقال الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في معرفة فضل الأئمة:

((... وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول ﷺ، فقالوا بمبلغ علمهم والحق في خلافها، لا يوجب

---

(١) سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي: ١٤/٣٩-٤٠.
(٢) يشير إلى حديث: ((خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، وطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ...)).
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٤/٣٧٤-٣٧٦.

اطِّراح أقوالهم جملة، وتنقصهم، والوقيعة فيهم ... ومن له علم بالشرع والواقع، يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده. فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين))[1].

مسألة التأويل:

ومما يتصل بهذا الأمر: قضية تأويل قسم من آيات الصفات التي كثر الكلام فيها قديماً وحديثاً. وحين نتأمل في هذه القضية، نرى أن الذين ذهبوا إلى القول به علماء أعلام هم قرة عين الدنيا –بحق– منهم: (الإمام النووي) و(ابن الجوزي) و(ابن عقيل) و(العز ابن عبد السلام) و(ابن حجر) ... وغير هؤلاء كثير. ولا ريب أن وصف هؤلاء الأعلام وأمثالهم بالضلال والتعطيل أمر لا يقره إنسان منصف، ولا يسوغ ذلك شرعاً.

وكما لا يسوغ وصف هؤلاء بهذه الأوصاف، لا يسوغ – أيضاً– وصف الأئمة الذين أجروا نصوص آيات الصفات على ظاهرها بالضلال والتشبيه والتجسيم (كابن تيمية) و(ابن قيم الجوزية) و(ابن قدامة المقدسي) ... وحين ننظر إلى مفسّري القرآن الحكيم،

---

(١) أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية: ٣/٣٥٣-٣٥٤، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

نرى أنهم نهجوا هذا النهج في تأويل آيات الصفات (كابن جرير الطبري)، و(ابن كثير) وغيرهما من أئمة أهل السنة..!

وما أروع النهج الذي سلكه (الإمام ابن تيمية) رحمه الله، فقد كان منصفاً -بحق- عُرف بالسماحة والرحمة وسعة الأفق: فلم يُضلِّل أحداً منهم، ولم يُبدِّعهم، ولم يفسقهم، وكل ما قاله في مخالفيه: إنهم جانبوا الصواب، أو أخطأوا.

إن (ابن تيمية) ومدرسته هم مفخرة كل مسلم منصف. فعلينا أن نعرف لهؤلاء وأولئك مكانتهم، ونقتدي بهم في تقواهم، وأخلاقهم وعلمهم، ونفعل مثلما فعلوا ...!

قضية التكفير:

ويتسرع قسم من الناس، فيكفر هذا وذاك؛ لمجرد اختلافه معه في قضية من القضايا المتعلقة بفروع العقيدة التي اختلف فيها العلماء قديماً وحديثاً. وتلك جريمة كبرى يرتكبها المسلم بحق أخيه المسلم؛ إذ إن تكفير المسلم، يعني إخراجه من ملة الإسلام، وجعله مرتداً. ويترتب على هذا: التفريق بينه وبين زوجته وأولاده، وقتله كفراً -إن لم يتب- لدى جمهور الفقهاء.

ابن تيمية وقضية التكفير

ويبدو أن قضية تكفير المسلمين رفعت رأسها في عصر الإمام ابن تيمية، الأمر الذي جعله يصدر عددا ليس بالقليل من الفتاوى، يفند فيها تلك الظاهرة الخطيرة، مستدلاً بما كان عليه الصحابة الكرام

وجماهير علماء المسلمين فقد كانوا أبعد ما يكونون عن تكفير الناس إذا أخطأوا حتى لو كان الخطأ في العقيدة، ملتمسين الأعذار لمن اجتهدوا اجتهادات جانبوا فيها الصواب. وقد عالج هذه القضية الإمام ابن تيمية فقال:

(الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يستمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطأه كائناً ما كان.. سواء أكان في المسائل النظرية، أو العملية هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أمة الإسلام...)(١).

وقال-أيضاً-:

(وليس كل من خالف في شئ من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً؛ فإن المنازع قد يكون مجتهداً مخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئآته. وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك فهذا أولى)(٢).

وإذا تأملنا في هذه القضية بإنعام نظر، رأينا حوادث كثيرة وقعت في عهد الصحابة الكرام، بل وفي عهد النبيﷺ، ومع ذلك لم

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٤٦/٢٣.

(٢)مجموع الفتاوى ١٧٩/٣.

يكفر النبي ولا الصحابة واحدا من هؤلاء يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وقد كان على عهد رسول اللهﷺ طائفة أكلوا بعد طلوع الفجر حتى تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ولم يؤثمهم النبيﷺ، فضلاً عن تكفيرهم، وخطؤهم قطعي. وكذلك أسامة بن زيد قتل الرجل المسلم وكان خطؤه قطعياً، وكذلك الذين وجدوا رجلاً في غنمٍ له فقال: إني مسلم فقتلوه وأخذوا ماله كان خطؤهم قطعياً وكذلك خالد بن الوليد قتل بني جُذيمة وأخذ أموالهم كان مخطئاً قطعاً... وقد زنت على عهد عمر امرأة، فلما أقرت به قال عثمان: إنها لتستهِلُ استهلال من لا يعلم أنه حرام. فلما تبين للصحابة أنها لا تعرف التحريم لم يحُدُّوها! واستحلال الزنا خطأٌ قطعاً...)[1].

ويقول:

(والخوارج المارقون الذين أمر النبيﷺبقتالهم[2] قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقَّاص وغيرهما من الصحابة بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/٢٠٩-٢١٠ وانظر: منهاج السُّنَّة ٥/٨٥-.

(٢)إشارة لقولهﷺ (...فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة) رواه البخاري في كتاب المناقب= =(باب:علامات النبوة)٦/٦١٨، ومسلم في كتاب الزكاة (باب: التحريض على قتال الخوارج) ٢/٧٤٧، وأبو داوود في كتاب السنة (باب:في قتال الخوارج)٥/١٢٤.

على أموال المسلمين فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفَّار؛ ولهذا لم يسبِ حريمهم ولم يغنم أموالهم).

(وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسولهﷺ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم!؟ فلا يحلُّ لإحدى هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحل دمها ومالها وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضاً؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق مايختلفون فيه)[1]

ويقول:

(فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطإٍ أخطأه يكفر ولا يفسق، بل ولا يأثم؛ فإن الله تعالى قال في دعاء المؤمنين (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، وفي الصحيح عن النبيﷺ :(إن الله تعالى قال: قد فعلت))[2].

---

(١) قاعدة لجمع كلمة المسلمين لابن تيمية ص١٥-١٦ تحقيق حمَّاد سلامة. الناشر: مكتبة المنار. الأردن. الزرقاء.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٥/٦٤-٦٥ بتحقيق خيري سعيد / الناشر: المكتبة التوفيقية / القاهرة.

أبو حامد الغزّالي وقضية تكفير المسلم

ونجد موقف حجة الإسلام أبي حامد الغزالي من قضية تكفير المسلم موقفاً حاسماً: فهو يرد على من يقوم بالتكفير، ويأتي بالأدلة النقلية والعقلية التي تحرمه، ويصرِّح أن الجهلة هم الذين يبادرون إليه فيقول:

(التكفير حكم شرعي يرجع إلى إباحة المال، وسفك الدم، والحكم في الخلود في النار...والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل)[1]

ويدعو الغزالي المسلم أن يحترز عن التكفير ما وجد إليه سبيلاً فيقول:

(والذي ينبغي أن يميل المحصّل إليه: الإحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين الى القبلة، المصرحين بقول:[لا إله إلا الله محمد رسول الله] خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم)[2].

ويقول الإمام الغزالي-أيضاً-:

(اعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً إلا في مسألةٍ واحدة: وهي أن ينكر أصلاً دينياً علم من الرسول ﷺ بالتواتر)[3]

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة لأبي حامد الغزالي ص١٩٧ تحقيق الدكتور سليمان دنيا الطبعة الأولى ١٣٨١هـ/١٩٦١م. دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي.
(٢)الاقتصاد في الاعتقاد للإمام أبي حامد الغزالي ص١١٢. الطبعة الأولى/مطبعة حجازي/القاهرة.
(٣) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي ص١٩٥.

وإذا كان الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي المجمع عليه الذي لا تجوز مخالفته، ومنكره كافر خارج عن ملة المسلمين كما يقول علماء الأصول، فإن الإمام الغزالي يفرق بين من خالف الإجماع لعدم ثبوته عنده وبين المكذب له: فمن خالف الإجماع ولم يثبت عنده بعد، فهو جاهل مخطئ لا يجوز تكفيره وأما المكذب له فيكفر فيقول:

(وقد صنف أبو بكر الفارسي –رحمه الله– كتاباً في مسائل الإجماع، وأنكر عليه كثير منه، وخولف في بعض تلك المسائل. فإذن من خالف الإجماع، ولم يثبت عنده بعد، فهو جاهل مخطئ وليس بمكذب، فلا يمكن تكفيره)[1].

أيها المسلم إياك والتكفير

وعلى المتسرع في التكفير أن يتذكر حديث النبيﷺ:

((مَنْ صَلَّى صَلاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا فهو الْمُسْلِمُ: لَهُ ما لنا، وعليه ما علينا))[2].

وقوله:

((إذا قَالَ الرجل لأَخيه: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِه أَحَدُهُمَا: فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ))[3].

وقوله:

---

(١) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالي ٢٠٠.

(٢) رواه البخاري، انظر: فتح الباري: ١/٤٩٦، المطبعة السلفية.

(٣) رواه البخاري، انظر: فتح الباري: ١٠/٥١٤/ ومسلم: ١/٧٩، طبعة الحلبي.

((... وَمَنْ دَعَا رَجُلا بِالْكُفْرِ، أَوْ قَالَ:عَدُوَّ اللَّهِ ولَيْسَ كَـذَلِكَ إِلاّ حَارَ عَلَيْهِ))[1].

قالوا في تكفير المسلم

ولا يظنن أحد أن هذا هو رأي الإمامين ابن تيمية والغزالي وحدهما، بل هو رأي علماء المسلمين في كل عصر من العصور فهذا الإمام ابن قيِّم الجوزية يقول:

(من الكبائر تكفير من لم يكفره الله ورسوله)[2]

ويقول الشوكاني:

(اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية من طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما، هكذا في الصحيح، وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما: (من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوّ الله وليس كذلك إلا حار عليه) أي رجع، وفي لفظ في الصحيح: (فقد كفر أحدهما)، ففي هذه الأحاديث وما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير)[3]

---

(١) رواه مسلم ٨٠/١ طبعة الحلبي.

(٢)إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية: ٥٠٠/٤، تحقيق وضبط عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة القاهرة.

(٣) السيل الجرار للشوكاني ٥٧٨/٤، فصل والردة باعتقاد أو فعل أو زي أو لفظ كفري.

وأختم حديثي بما قاله ابن عساكر:

(اعلم – يا أخي– وفقنا الله وإياك لمرضـــاته، وجعلنـــا ممـــن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحـــوم العلماء مسمومة، وعـــادة الله فـــي هتك أســـتار منتقصيهم معلومة؛ لان الوقيعة فيهم – بمـــا هـــم منـــه براء– أمر عظيم، والتناول لاعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاق على من اختاره الله مـــنهم لـــنعش العلـــم خلـــق ذمـــيم.. والارتكاب لنهي النبي ﷺ عن الاغتياب جسيم ﴿فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم﴾)[1].

أي أن من يسئ إلى العلماء ويشوه من ســـيرتهم، يكـــون قـــد عرّض نفسه للهلاك، كالذي يتحسى السم؛ فإنه يهلك نفسه ولا ريب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ...

إبراهيم النعمة

رئيس جمعية الشبان المسلمين

في الموصل

---

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر: ص ٢٩–٣٠.

المحتوى

الموضوع	الصفحة

صدر للمؤلف

١- إيماننا الحق بين النظر والدليل
٢- يسألونك ليزدادوا إيماناً
٣- تأملات في آيات القرآن
٤- دراسة في مصطلح الحديث
٥- الجهاد في التصور الإسلامي
٦- رضينا بالإسلام ديناً
٧- العمل والعمال في الفكر الإسلامي
٨- المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري
٩- الإسلام في إفريقيا الوسطى
١٠- نفحات من شريعة الإسلام وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان
١١- أخلاقنا أو الدمار
١٢- علوم القرآن
٣١- روائع إسلامية (جزءان)
١٤- روائع وطرائف (ثلاثة أجزاء)
١٥- العقيدة الإسلامية
١٦- المؤامرة على المرأة المسلمة-فتياتنا بين الحجاب والسفور
١٧- لمن تحطم الأخلاق؟!
١٨- خصوم الإسلام والصحوة الإسلامية المعاصرة
١٩- التوسل والوسيلة
٢٠- دعاء المسلم في اليوم والليلة
٢١- الأصولية الإسلامية ومؤامرات الغرب
٢٢- صحابة رسول الله ﷺ
٢٣- الإعراض عن منهج الله وأثره في حياة المسلم
٢٣- صرخة مؤمنة إلى كل فتاة مسلمة
٢٤- السلسلة الذهبية للبراعم الإسلامية في السيرة النبوية (بالاشتراك)
٢٥- عمل المرأة بين الإسلام والغرب
٥٢- الإسلام والغرب وجها لوجه

٢٦- تحقيق كتاب أصول الفقه الإسلامي للشيخ رشيد الخطيب الموصلي

تحقيق كتاب اعتقاد أهل السنة
٢٧- والجماعة للشيخ عدي بن مسافر
٢٨- الأموي الشامي المتوفى سنة ٥٥٧
٢٩- (بالاشتراك)
من صفات الداعية
٣٠- تفسير آيات الحجاب
٣١- مباحث في أصول التشريع الإسلامي
٣٢- منهج الدعوة إلى الله
٣٣- باقات الورود النضرة من حكايات
٣٤- المسلمين العطرة
٣٥- الإسلام وقضايا المرأة
٣٦- الإسلام وتعدد الزوجات
٣٧- الطلاق بين الفقه والقانون
٣٨- العالم الإسلامي وتحديد النسل
٣٩- الإسلام ووقاية المجتمع من الجريمة
٤٠- الإسلام والرق
٤١- الحج ليس وثنية
٤٢- الإسلام وقصة العامية
٤٣- العلاج النفسي في القرآن الكريم
٤٤- الدعوة إلى الله
٤٥- التعامل الربوي وكيف عالجه الإسلام
٤٦- المنافقون في القرآن الكريم
٤٧- آدم عليه السلام خلقه ومعصيته
٤٨- رسالة المسجد
٤٩- قبسات من الحكمة النبوية في الدعوة إلى الله
٥٠- فقه الدعوة والداعية
٥١- منهج الدعاة